وداعاً ايها الشعر

علي المصري

وداعا ايها الشعر ديوان شعري رفيع للاديب السعودي الكبير احمد محمد جمال . عضو المجلس الاستشاري السعودي ، وأستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الملكعبد العزيز ، وعضو اتحاد المنظمات الاسلامية العالمية ، وعضو اللجنة الثقافية برابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة .

والاديب أحمد محمد جمال ذائع الصيت واسع الشهرة غزير الانتاج معروف في الاوساط العربية والاسلامية كناثر ومفكر اسلامي ومنظر ، ولا نعرف عنه قول الشعر حتى وقع ديوانه الرفيع ــ وداعا ايها الشعر ــ بين ايدينا مجددا ، بدأ الاديب احمد محمد جمال حياته الادبية بقرض الشعر . وقد جمعه ليطبع نتاجه الاول في ديوانشعري اطلقعليه اسم ــ الطلائع ــ وذلك عام ١٣٦٦ هـ ١٩٤٦ . ويضم الديوان قصائد مختلفة الالوان والافكار والمذاهب ، تلك القصائد التي قدر لها ن ترى النور في فترات مختلفة تصدرت صحف ومجلات السعودية ومصر العربية وغيرها . ثم يشاء القدر ان يكون هذا الديوان ــ الطلائع ــ الاول والاخير للشاعر لينتقل بعد ذلك فيصبح علما من اعلام الفكر الاسلامي المعاصر مؤلفا لمجموعة من الاسفار القيمة، ومحاضرا ومحدثا في مختلف المواضيع الاجتماعية والانسانية والسياسية والدينية على وجه الخصوص ، ليمنح المكتبة العربية والفكر العربي زادا سيبقى معينه الفكري سلسبيلا عبر العصور، واشهر مؤلفاته المطبوعة والمتداولة :

١ ــ على مائدة القرآن .. دين ودولة .. طبعتان ..

٢ ــ على مائدة القرآن .. مع المفسرين والكتاب .. طبعتان .

٣ ــ محاضرات في الثقافة الاسلامية .. الطبعة الرابعة ..

٤ ــ مفتريات على الاسلام .. الطبعة الثانية .

٥ ــ كرائم النساء .. الطبعة الثانية .

٦ ــ نحو سياسة عربية صريحة .. ابحاث سياسية وتاريخية ..

٨ ــ مكانكَ تحمدي .. دراسة عن المراة والاسرة طبعة ثانية ..

٩ ــ الطلائع .. ديوان شعري ..

١٠ ــ سـعد قال لي .. مجموعـة قصص اجتماعية ..

١١ ــ ماذا في الحجاز .. تراجم ونماذج ادبية .

١٢ ــ من اجل الشباب .. طبعة ثانية ..

١٣ ــ واخيرا وليس اخرا ــ وداعا ايها الشعر ــ ديوان شعري وهو موضوع دراستنا .

يقع هذا الديوان ــ وداعا ايها الشعر ــ في خمس وتسعين صفحة من القطع الكبير . من منشورات نادي مكة الثقافي لعام ١٣٩٧ هـ بمطابع دار الثقافة بمكـة المكرمـة .

يبدأ الديوان بحـوار مع الشاعر ، أجراه اديبـان سعوديـان من الادباء الشباب ، نلمح من خلاله تمسك الشاعـر بالقيم الادبية الراسخة الجذور في ادبنـا القديم ،وتشتشف حب اديبنا للتراث ، وايمانـه العميق الذي لا يتزعزع بحرية الادب والادباء ، وافكارا اخرى تدل على النضج والوعي العميق .

ثم يلي ذلك محاضرة قيمة للاديب احمد محمد جمال القاها في مؤتمر الادباء السعوديين الذي انعقـد بمكة المكرمة عام ١٣٩٤ هـ وهي محاضرة رفيعة القدر جليلة المعاني يصر فيها الاديب على ان لا ادب بـدون حريـة ، ولا ادباء بدون مناخ ديمقراطي مشبع بالحرية والعطاء . ويركز الاديب فيها على نقطة جوهرية اخرى وهي الالتزام وهنا يقدم الاديب اراء ناضجة جيـدة ويشرح لنا الالتزم النابع من ذات الاديب وحريتـه الطوعية ، ويميز بينه وبين الالزام الذي يتبع فـي كثير من الاقطار التي اختنقت فيها حرية الادب والادباء ثم يقدم اراء موضوعية من محنة الادب السعودي ، ويحدد مسؤولية الادباء للنهوض بهذا الادب ووسائل تطويره وتجديده بنفس فكري لا نجده عند أي مـن الكتاب في أرقى الممالك والدول ديمقراطية ولبيرالية .

ويمكننا ان نقسم هذا الديوان الىالاقسامالاربعة التالية :

آ ــ يبدأ القسم الاول من الديوان بقصيـدة ــ متشايخ ــ وهي قصيدة وجدانية فيها مـن الهمس والبوح ما يرقى بها الى مصاف امثالها عند الشعـراء الاخرين ، وفيها من اساليب الخبر وانشاء ما يجعلها حية نابضة تحاكي اساليب الفحولمنالشعراء ونقتطف من روضها الابيـات العذبة التاليـة :

وقائل : ما ألذ الشعر ترسله
فقلت ويحك ، هذا من دمي الغالي

وسائل فيم لا تهوى ؟ فقلت له
اهوى ، ولكن باغماض ، واجهال

وهاجر يتمنى عـرض مظلمتـي
فما اجتنى غير اعراضيواغفالي

.. دنيا من الامل المألوم يسعدني
لو عشت فيها بلاقلب ولا بال

ففي هذا القسم من الديوان نرىالمسحةالفلسفية والفكرية تطغى على النأمة الشعرية والنفس الموسيقي ففي قصيدة ــ من أنا ؟ ــ يقول :

ويا نفس ! ان أسألك عمن اكونه
فلست ببدع في الـذي أنا سائله

لست الذي يؤذيه في الشرق ان خلت
به حقب ، والغـرب فيهـا يخاتله

يناشله أمجاده .. وعلومه
ويغدو اليه ناسبا ما يناشله

ويكربني ان اشهد الغرب يدعي
جهاله هذا الشرق وهو يجامله

اما في القصيدة التالية ـ من نحن ؟ ـ فيقول :

نحن من نحن ؟ اننـا للمعالـي جنودهـا
وحيال العـدا لنا وقفـات نجيـدها

نوهـن الخطب موهنا

وتفدي المواطنـا

نحن فيهـا عبيدها

وكذلك نجد الجانب القومي بارزا في هذا القسم من الديوان .

فالشاعر لا يدع مناسبة قومية تمر على امتداد الساحة العربية الا ويؤرخ لها بقصيدة . فميلاد الجامعة العربية يثير في اعماقه الامل بوحدة العرب ، فينظم فيه القلائد المجيدة مؤكدا مقومات الوحدة من **لغة وتاريخ ودين** وامال والام ، منبها العرب الى ما وصلوا اليه من تهاون وفساد ، مناشدا ضمائرهم التمسك بعرى العروبة والاسلام ، ليعيدوا لهذه الامة عزها التالد ، فيقول :

تبدت ، وكم عاليت طول تلفت
فنافسني الانظار غيري ، فاغضت

ولكنها اغضاءة الوجد كامنا
كمنسي قوم سيم هجران غفلة

.. ارى الدين والفصحى وارحام معشري
وتلك هي الجماعة الشمل ـ شقت

فلا حرمة للحق تحمي اعتقادكم
من الزيغ نحو الزيف في كل خطة

.. قلتم ولكن بعد ان تسرعوا الخطى :
بنو الشرق في اسلامهم خير امة .

ـ وجلاء الفرنسيين عن سورية العربية يبعث فيه الحميا ويثير في جوانحه الاعتذار ، فينتفض الشاعر جذلان لينظم ملحمة النضال العربي السوري بعنوان ـ مرابض الاسد غضبى ـ :

.. من قال : لـن نتخطى عهد غفلتنا
ولن يفوت العـدا سلطانهم فينـا

.. حتى اذا بلغ السيل الزبى صرخت
فينا الدماء انتصافا غير باغينـا

فتلك سورية الفيحاء اعنتها
حكم الفرنسيس ، تحكيما وتقنينا

كم انفقت من دم زاك ، تناضلهم
ولم تبال بقتلاهـا ملايينا

ودك بالقنبل الهدام عامرها
فويل باغ يظن الجور تمدينـا

وهاهي اليوم تسقى نخب محنتها
عذبا .. جلاء مذليها ، اذلينا

فليهنأ العرب ، هذا اليوم فاتحة
لان نعيش طليقي العيش ، واعينا

مرابض الاسد غضبى ان تسورها
بيض الكلاب اغترارا من تلاهينا

ـ والشاعر مدرك تمام الادراك ابعاد المأساة التي دهت امتنا العربية وان الغرب وراء كل محنة ومصيبة فهو حامل على الغرب حملة شعواء لاهوادة فيها ولا رحمة ، كيف لا والغرب يعيش على خيرات بلادنا ومرتكزاته الفكرية والعلمية من بقايا تراثنا ، فهاهو الشاعر يثور في وجه بعض ادباء العروبة لذين احزنهم سقوط باريس امام اجتياح هتلر ، فيسخر منهم

بقصيدة تتماوج فيها الروح العربية ويتلاطم في خضمها فكر الشاعر الغاضب ، كيف لا والدم العربي مـازال مطلولا في شوارع سوريا ولبنان والجزائر وغيرها مـن دنيا العروبة ، فيقول بقصيدته ــ القوميات الزائفة ــ :

اسفا لكتاب بمصر بكوا علـى
باريس اذ غشى الدجى انوارها

واستهدفت للحرب يوريها بها
اعدى عداها قاحما اسوارها

واحتلها ــ الالمان ــ واستعلى بها
متحكما ، وسقى الاذى احرارها

.. اسفا لقوم سيم اخوان لهم
في الشرق من افرنسة اخطارها

وسقوا اذاها في قساوة حكمها
وبلوا بها واستنكروا استعمارها

..ويولولون لخطبها وهي التي
شكت ــ العروبة ــ ظلمها وأسارها

اسفا لناس اظهرت حر الشجا
لفرنســة ، وبكت لها منهارها

نسيت عروبتها وخانت دينهــا
عجبا لها ناسا تحب خسارها

تبا لكم ولها ومن جاراكم
فبكى او استعدى لها ، فأجارها

ــ اجتماع المسلمين على عرفه يوقظ في الشاعر امجاد الاسلام واشواق النبوة وعز العرب ، فيخلـد الحج والحجيج بقصيدة رائعة عنوانها ــ الحج اسمح فرصة ــ :

.. بني النيل ، اورواد زمزم مرحبا
بكم حيثما تثوون مكة او مصرا

وما مكة ؟! آه اليست بأمسهـــا
افاءت على الافاق من خيرها الوفرا

وما مكة ؟! آه اليست بأمسهـــا
ترامت على الامصار من دينها البشرى

.. بني بردى والنيل .. ابناء دجلة
وزمزم .. هل تدرون مشكلة كبرى

يسوء العلا والدين حال جفائنا
وان سرقو ما حيروا ميلنا شبرا

ليؤسفني ان العراق وان دنا
بعيد ، فما اخباره عندنا تدرى

كذلك سوريا القريبة لم نحط
بآمال اهليها والامهم خبرا

كذلك اطراف البلاد جنوبهــا
ومشرقها لم ندر ماذا بها يجرى

لئن كان حكم الارض باعدبيننا
وافسدت الاعداء احوالنا خترا

فقد اصلحت ما بيننا وحدة المنى
وقد جمعت اشتاتنا جمعة الذكرى

وقد جاء هذا الحج اسمح فرصة
لتوليد عهد لايباع ولا يشرى

ــ ويوم الهجرة يذكي خضيل الذكريات ويؤجج اعطر الاشواق وذكرى ــ ثور ــ تركب الشاعر متـن القوافي ، فينشد :

تجرمت الاحقاب تترى ولم تزل

تداود ذكراك الخوطر – ياثور –

سمعنا بظهر الغيب فيك مقالة

–لاحمد – لا يأتي على خلدها الدهر

يقول – وقد أبدى المخافة خلة :

رويدك لا تحزن ، فثالثنا البر

اتخشى ؟ وقد واثقت ربك لا تني

جهادا الى ان يستقيم لنا الامر

.. انسناك ؟ والذكرى بنا مستمرة

لتاريخنا اذ كان اوله – ثـور –

– وميلاد النبي العربي عليه السلام يذكر الشاعر بماضي الاسلام والعرب المجيد ، ويؤرقه حاضرهـم التعيس فينشد من وهج شرايينه ودفق قلبه :

للـه ماض لنا مازلت اذكره

في الفجر والزهر ، من حسناه ، اشباه

ماض اذا دومت في جو فاكرتي

ذكراه احنيت اجلالا لذكراه

واوهت كبدي من هون حاضرنا

اذ نحن في اللهو والسوءى اهناه

وحرت في الغد ، ماذا فيه يفجأنا

وهل على اليسر ام بالعسر نلقاه

بالامس كنا ولاة الكون نعجره

بالعدل والفضل ادناه واقصاه

والسلم نؤثرها ، والحرب نسعرها

لا نعتدي ، ووغانا النصر عقباه

والهوم ، مابالنا من بعد رفعتنا

في الكون نزحف زحفا في زواياه

– والوحدة العربية ديدن الشاعر وهاجسـه الذي يؤرقه على الدوام ، وهو يستصغر شعرا ينشد لغير الوحدة العربية وعزتها :

دعا المجد شعر ، مرحبا بك داعيا

ولا مرحبا بالكاسيات عواريا

وما انت في حسي ، سوى وحدة الورى

ورى العرب دانيهم ومن ظل قاصيا

ولا انت الا نهضة ترجع العلا

علا العرب او تبنيه بالحق ثانيا

.. وقفت على حفز العروبة خالصا

غرام فؤدي ، والخطى ، والقوافيا

وما ثمن الاشعار يشدو بها الفتى

اذا لم تنظم في العلاء مثانيـا

.. وان هو لم يصبح ولم يمس بالهدى

وبالوحدة العصماء جهرا مناديا

الا ان شعرا قيل في غير امتي

وتحميسها للمجد لم يك غاليا

وما المجد الا ان تعيشوا بوحدة

وفاق وحب ينجحان المساعيا

– ويحزن الشاعر أن يرى وطنه وأبناء قومه أذلاء امام الاعاجم والمستعمرين، فينتف قلبه غناء شجيا على مذبح الوطن والمواطن ، فينوح بتفجع :

رباه ! ادبرت الدنيا بعزتنا

الى الاعادي فعزوا في مغانينا

يؤرث الغيظ صدري ان يرى نفر

منا خوادم اعجام ملاعينـــا

ياحطة العرب عن دين يمجدهم

وضيعة الدين في عرب اذلينـــا

— وفي هذا القسم من الديوان نفحات وجدانيـة رقيقة تتناغم فيها الحـروف وتتهامس فيها القوافي بايقاع جميل يتناسب مع رقه المعاني فمن قصيـدة — مع شاعر الاطيار — نقتطف البراعم التالية :

فؤاد تغاديه المنى وتراوح

ونفس يعاشيها الاسى ويصابح

اهم ؟ ولما يمض بالعمر فجره

يجد معي حينا ، وحينا يمازح

اياشاعر الاطيار ذرني وروعتي

فليس سواء ذو شجون ومارح

— وفي هذا القسم من الديوان معارضات للفحول من الشعراء في العصر الجاهلي كقصيدته أنا والليـل والتي صنفها في الديوان بعنوان — اشجان — :

وليل، ولا كاليل احمدت الفه ،

دجي ، شجي ما يطاق ثقيل

ابيت به والقلب عبران من دم

ومفتكري بالذكــريات حفيل

أبيت به لا الشمس ارجو طلوعها

علــي ولا للطالعـات افـول

— ويكثر فيهذا القسم الشعر الاجتماعي الـذي يصور شرائح اجتماعية تقطر الما وعذابا ، فهاهو يعقد مقارنه بين طفل مدلل واخر بائس امام قدوم العيـد بقصيدة بعنوان — سيأزف العيد — :

سيأزف العيد .. يا بشراي

يقولها مرح الاعطاف والجيـد

أبو يلقمه حلوى ، ويلبسه

استبرقا ، بين تدليل وتمجيد

وأمـــه تتلقاه بأذرعهـــا

بسامة ، بين ترقيص وتغريـد

وبيته معرض الالعاب ، مختلفا

الوانها ، من هدايا او تقاليـد

فأين منه يتيم غير مكتفـل

واين فيه عجي غـير مودود

واين منه وليد بين عاريـــة

ومفلس يائسين العمر من عيـــد

واين منه فتاة غير حاليـــة

كسيفة الصدر ، في اهل مجاريـد

— وعلى لسان اليتم يحدثنا الشاعر في قصيـدة له بنفس العنوان ، عما يكابده الايتام من عنة وشقاء وعما يدور في خواطرهم وعلـــى السنتهم من غصص وآلام :

ابي أين يمسي مطعمي ؟ اين مشربي

افي السوق ، بئس السوق لي متقلبا

وكيف مبيتي في دجاي على الثرى

وما مأمني آوية ؟ ان خفت مرعبا ؟

وكيف معاشي في نهاري على الطوى

وهل سوف القى فيه ملهى وملعبا ؟

ومن يشتري لي ملبس حين ينتهي

مزيقا ؟ ويكفي حاجتي ما تصعبا

وفي دار من يلغى سباتي مضجعا

وفي مال من يلغى معاشي مرحبا

ـ ثم نجد في نهاية هذا القسم من الديوان قصيدة فلسفية فيها محاولة لسبر اعماق المجهول والوصول الى المحجة والخلاص عنوانها ـ الوردة الشائكة ـ يقول فيهـــا :

جمالك يغري العقل بالسبح في الهوى

فبادرة الوجدان اعذر في السبح

جمالك يوحي بالثناء لماهر

أجادك تذكارا على باريء سمح

ولكن سرا فيك ، ينهش علمــه

فؤادي ويمتاح المدامع للسفح

.. أخي وندائي هاهنا عطف اسف

على بلبل يستبدل الطين بالروح

.. الا انني ، من حيرتي فيك ، ابتغي

لديك بيانا سوف اطويه في جنحي

ـ واخيرا نجد في نهاية هذا القسم من الديوان قصيدة بعنوان ـ نحن الادباء ـ يتحدث فيها عن مهام الادب والاديب في كشف العمايات وهتك الستر امام المدلجين على الدروب في دروب الحياة الخيرة ، وعلى القادة استلهام رؤاهم ووضعها موضع التنفيذ ، والا تبقى تطلعاتهم صرخة في واد ، وفيها يقول :

ما بالنا ننتضي الاقلام مشرقة

بنهج ما غم من اهداف محيانا

فلا نرى عاملا بالرأي متبعا

للنهج ، مستيقنا اخلاص شورانا

هذي المشاكل ما تنفك غاشية

حياتنا ، فهي في التعليم احيانا

وحول تربية او حول تغذية

وغير ذلك مما منه شكوانا

مابالنا نكتفي بالفحص في عجــل

دون العلاج لعلولات دنيانا

فياكبارا عليهم نيط مأملنا

وعندهم دوننا تحقيق مرمانا

لكم علينا الحلول الغر شافية

صدى مشاكلكم سرا واعلانــــا

لكنما قدرة التنفيذ عندكمو

فالفعل معناكمو ، والقول معنانا

ب ـ والقسم الثاني من الديوان بعنوان ـ صلوات وتسابيح ـ وفيه نقع على مجموعة من القصائد التأملية هي عبارة عن مختارات مما قيل في التوجه الى اللــــه العلي القدير برجاء او قنوط او علـــة او هزيمة او انتصار .

ـ ففي قصيدة ـ ع شاعر السماء ـ نجد المعاني الرائعة التالية :

ايها اللاعب في حضن السماء
ايها الغائض فيها بالرواء
أيها الساكب في مد الفضاء
نورك الحالم حلم العقلاء

أيها الراني بين الكبرياء .. من عـل .. تمقت اسفاف البشر

انا بدر كدنياك اريـد
مثلا اسمى لكون لا يبيد
لا يرى فيه بغاة او عبيد
فكرة تحقيقها جدا بعيد

ولهذا اضاق عن روحي الوجود .. فهي روح من جمال تحتضر

— وفي قصيدة بعنوان ضحك يؤكد الشاعـر انتصار الحق مهما طال ليل الباطل والبغي :

واضحك لا ظنا بنيل رجيتي
ولكن لعزم الخصم الا انولا

.. اردت صلاحا فاقتفاني مزلزلا
خطاي ولكني ابيت التزلزلا

ففي النفس ألا بأس ان يهزم الهدى
قليلا ، فخصم الحق يهوى ، وان علا

وفي نفحة شعرية بعنوان صلاة نجد تمسـك الشاعر بالقيم الروحية السامية والاستعانة ببـارىء الكون والناس :

رباه ! اني بملء القلب ، لا بفمي
اقول نحوك تفويضي وتعويلي

وان لي الثقة العليا بما ملكت
يداك ، لا بالذي يجنيه تحصلي

وانني منك راج ان تخولني
تقواك سرا وجهرا في مفاعيلي

— وفي خاطرة شعرية اخرى يؤكدالشاعر ايمانه العميق باللـه وانه الشافي الكافي من كل الاوصـاب والادواء ، وانه متمسك بعروة الايمان حتـى النفس الاخير وامله الحصول على مرضاة اللـه :

أيها الحمى لقد احرقتني
وذوى من وقـد نيرانك غصني

انا لم يضجر فؤادي منك بـل
لم يسؤ في رأفه الرحمن ظني

فحنانيك الهي .. واهدني
من ذنوبي ، ربما لم ترض عني

— الم بالشاعر داء عضال فلم يجد غير اللـه شافيا له ، فهاهـو يتوجه اليه متضرعا مستشفيا :

سألتك يا رباه في ركعاتي
شفاء لادوائي وفي سجداتي

وقبل صلاتي ارتجيك وحينما
واثر انتهائي من اداء صلاتي

وفي هجعات الليل والناس نـوم
وطرفي بكاء ، وفي يقظاتـي

.. فهلا شفاء منك يكسو شيبتي
جمالا كما كانت ، وتسعد ذاتي

— وفي خلجة من خلجات الشعر النابع من القلب يروي لنا الشاعر رفض الدواء الشافي اذا كان فيـه معصية الخالق ، معولا عليه في كل امر وفي كل شفاء ، كيف لا وهو فاطر كل شيء ، في مقطوعة بعنوان — زعم الطبيب — :

زعم الطبيب بأن بالصهباء

تشتد أعصابي ويحسم دائي

فرفضتها ، وانا المريض ، ولم اكن

لاريد بالخمر الحرام دوائي

آمنت ان اللــه لم يجعل لنا

فيما نهانا عنه اي شفاء

آمنت ان اللــه سوف يقيمني

من علتي فبه عقدت رجائي

وبحرمة اللــه التي عظمتها

تشتــد اعصابي ويبرأ دائــي

ـ وفي قصيدة ترتفع في بوحها الى مصاف الشعر الصوفي ، يحدثنا الشاعر عن سأمه من العيش والدنيا والناس ، فيثوب الى خالقه فعنده المحجة والخلاص :

مللتك يادنيا ، وان لم ازل فتى

على مثله الدنيا تعز وتكرم

.. سأصبر نفسي دون ريب ببلوئي

واسترحسي بالاذى لا اكلم

فلله لا اهلي ولاذي صداقتي

شكاتي ، ففي اللــه اتعشم

ـ وفي نهاية هذا القسم من الديوان يتوجه الشاعر بنفثة شعرية من القلب بعنوان ـ بكاء ودعاء ـ الى العلي القدير أن يلهم قومه السداد والرشاد وان يبدل حالهم من عسر الى يسر ، ومن حطة الى عزة فيقول :

رب ان كنت قد كتبت على

القوم خمولا وفرقة وصغارا

فابدل الهون مكرمات وصير

فاقة العلم ـ في البلاد ـ يسارا

رب وارفع رؤوسهم عاليات

وضع الاصر عنهمو والشنارا

رب واجعل منهم رجال نضال

ـ لا ضلال ـ .. اعزة احرارا

ج ـ القسم الثالث من الديوان وهو بعنوان ـ اشتات ـ مجموعة من القصائد اختيرت مما قاله الشاعر في مختلف الفنون الشعرية التقليدية والمستحدثة .

ـ ففي التأمل نراه يستبطن ذاته ويفتكر في كر الغدو والاصال والحظ العاثر والحبيب الغادر والصديق الهاجر والقريب النافر :

عندما اخلو لنفسي لارى

بلحاظ الفكــر ـ ما قد غبرا

فيكر الامس نحوي راسما

مــن امامــي وورائي صورا

شد ماآسي على دهر عصى

ومنــى خابت وحظ عثــرا

(وحبيب) ما رعى العهد ـ ولا

قدر الود .. ولكن هجرا

(وصديق) ما حماني مشهــدا

لا ولا غيبا .. ولكن خترا

(وحياء) سامني فوت الجنى

من حبيب طائــع ما نفرا

(وقريب) اشبع القربى اذى

وسقاها ما سقاهـا كـدرا

(وبعيد) حمد الفضل بنـا

ورعى الود لنـا واعتبـرا

(وحسود) قد درى مقدرتي

في ابتداع الفكـر لكـن كفرا

ــ والشاعر يعجب من تصريف امور الحياة فهي ترفع ناسا وتذل ناسا وتغني هذا وتفقر ذاك ، وتوزع الحظوظ على غير هدى :

عجاب هي الارزاق ساعة تقسم

فهذا اخو مال وذلك معدم

.. ويدرك مجدا خامل بيد انه

مشفعة فيـه قريب معظم

ويخفق في عقبى مساعيه عامل

صبور على البأساء ما يتألـم

.. وهذا شباب عاقل غير طائش

يخاف ويرجـو اللـه لا يتأثم

وذاك مشيب طائش غير عاقل

يحب ويغوي من يحب ويجرم

.. وللـه فيما استنه في عباده

مجاهيل اسرار على النقـد تحرم

ــ وفي تكريم اهل الفكر ينشر الشاعر القصيـدة التالية تحية للكاتب الكبير الاستاذ العقاد حين زيارته للحجاز عام ١٩٦٥ هـ :

آمنت غير منافق ومكاذب

آمنت بالعقـاد أبلـغ كاتب

يزهو بك الشرق الحديث بنهيه

نقاده لخواطيء وصـــوائب

اسلوبك السلسـال اسحر اخذة

نحو الرشاد لخائـر ولرائب

ــ وفي الرثاء يقول قصيدة طويلة في رثاء الشيخ محمد امين فوده نجتزيء منها الابيات التالية :

.. ولكن بي من فجأة النعي كاظما

احال قصيدي قاحل الفيض اسفعا

فقل لي وللقوم الحزاني : عزاءكم

على ان ربع الفضل قد بات بلقعا

ومن اسف ان الخليين من نهى

وجدوى .. مكوث في المتارف رتعا

ــ وفي ذكرى ابي العلاء المعري يقول معرفا بـه مبينا لفضله :

تكلم صيت العرب اومأ تكلما

سواء ، فما تنفك في العرب معلما

(ذكاء) مديد السبح في كل وجهة

(وحافظة) تؤوي فصيحا واعجما

(وفهم) بليل الريب مسترسل السرى

و (عجز) أبي الا الغيب سلما

ــ وبين الجد والفكاهة ينظم الشاعر قصيـدة يتحدث فيها عن حرارة الصيف الخانقة التـي تلف المملكة العربية السعودية فتشوي الجلـود وتذيب الاذهان وباسلوب فكه يتحدث عن ذلك بقصيدة عنوانها ــ ذنوب الحر ــ :

كيف لي بالقصيد يوحي لذهني
وهو في الحر ذائب مشبوب ؟

نسمات تهب حرى فياويل
بلادي بها ، وبئس الهبوب !

وسماء ربداء مثقلـــة الحمـــ
ـــل ، عقيم الجنا . . ومغنى جديب

ونجـوم غبراء تتبـع بـدرا
حل فيه التثريب لا التشبيب

– وفي موضوع الاخلاق يتحدث الشاعر في قصيدة عنوانها – افك مدفوع – عن سلوكه الجدي في الحياة وركضه المتواصل وراء الجد والتحصيل ، دافعا عن نفسه كل ما يدعو الى الشبهة ، مبتعدا عن اللهو والهوى والمجون :

ستضحك عيابا علي حصانتي
وترجم أمالي بخبل والامي

فانت غريب اللب الا عن الهوى
هوى العيش تبغيه لذاذة اثام

لباس هي الدنيا لجان ومحسن
سيجزيهما العدل احكم علام

– ومن باب المساجلات الشعرية التي تحدث احيانا بين الشعراء جرت امثالها مع لشاعر وصحبه الشاعر حسين سرحان والشاعر حسين عرب ، بقصائد على طريقة النقائض بين فرسان حلبته الشعر في العصر الاموي . ومما قاله الشاعر هنا :

دعا حر الزمان ولا تنـــالا
بحر كما العباءة والعقـــالا
عقـــال لراس مأمون ولكـــان
عقـــال النفس اجدر ان يـزالا
وما ادنى العقال لضرب عاد
يبادلك السباب او النضـــالا
وما احراه حين يراك عـــز
من الاجنـــاد ، ان يقف امتثالا

– ومن معارضاته للشعراء نذكر هذه المعارضة بعنوان – كبرياء – وقد عارض بها الشاعر المرحوم حمزه شحاته ، والشاعر حسين عرب في قصيدتيهما لهما نفس البحر والروي سنة ١٣٥٩ هـ :

همس الهوى ، لم يكن من قبل يهجس بي
ولا سمادير حسن حاكها الشغف
ولا الحنين الى ذي رونق حســن
في وجهه الصبح يكسو خصره الهيف
أو كان كالزهر اذ يفتر مبسمه
وخده الورد من توريده يجـف
او كان في ناظريه البيض مرهفة
في ومضها الفتك بالنظار والخسف
أو كان اما خطافا لغيد مخجلة
من خطوة ، وغصون البان ترتجف

– وفي مجال الحكمة يلخص الشاعر تجربته في الحياة بأبيات يطلقها فتسير مسار الحكمةعبر العصور فها هو يميز بين الطيب والخبيث من الاصدقاء فيقول

مكانك ! من هذا الذي عنه تبحث
ومن عجب ، تعنى به وهو يعبث
أترجو ودادا من فتى غير صالح
تطيب عفافا في الهوى وهو يخبث
خليع رقيع . . مائن غير آمـن
على موثق يعطي ولا مايحدث

وما هو في حسن فريد لذاته
فحبك لو فكرت ما كان يحدث

– وفي باب الاخوانيات وقد اكثر الشاعر فيه وأجاد نقتطف هذه الابيات بعنوان – الصديق الاول –

قسما ما استطبت بعدك عيشا
ياصديقا قد طاب بعدا وقربا

ذكرياتي وذكرياتك ذخـري
من هنا الشباب قبلا وغبا

– وفي مجال الهواجس التي تعتور النفس وتحف فيها بأسافين من الوجع والقلق حيث تصطرع القيم يقول الشاعر :

اقول لنفس حين كذبت ظنها

رشادك هذا الحب ايمانه كفر

على الرحب من يدنو رجاء مودة

لدنيا ، ومن يأبى مودتنا حـر

— وفي باب النصح والوعظ والارشاد يتوجـه الشاعر بهذه الابيات لاحد الاصدقاء الميم شطر مصر طلبا للعلم ناصحا مرشدا فيقول :

ايها الظاعن العزيز الى مصر

تذكـر مـرادك المأمـولا

ان في مصر للمعارف نيـلا

مستفيضا ، وللمتـارف نيـلا

فذر اللهو للغواة وصـدق

أمـلا للبلاد فيـك جميـلا

— وفي الامثال ، يتيسر للشاعر صياغة مثـل متداول معروف من الامثال القديمة ، على الصـورة التالية مبينا قيمة شعره :

شعرت فعاب البلة شعري ومادروا

نفاسـة ما يشـدو به مني الفـم

وهل تعدم الحسناء في الناس زاريا

على حسنهـا . . كـلا فما هي تعـدم

— وفي هذا القسم من الديوان فنون شعريـة كثيرة يصعب حصرها وابداء الشواهد عليها في هـذه العجالة من الدراسة مستحيل فالشاعر خصب الشاعرية فياض الخاطر ، ما ترك بابا من ابواب القول الا وافتن فيه .

د — ثم يأتي القسم الاخير من الديوان بعنـوان — اشعار من الغرب — اعجب الشاعر بها فنقلها عـن عن الانكليزية بتصرف كبير في الاسلوب والاداء ، صب فيها خلاصة تجربته الفنية في النظم وعصارة تجاربه في الحياة وارسلها كالحكمة تعبر عن نظرته للحيـاة ، وقد ثبت اصولها بلغاتها الام في نفس الديوان .

— فعن بايدون نقل هذه الفكرة بعنوان — الجمال الخالد — :

يزايل ما نهذي به من تحرر

وما نبتني —وهما — من المجد والفن

على حين تستبقى الطبيعة حسنها

ومتعتها الجرداء من خدعة المين

— وعن هازلت يورد الهمسة التالية بعنـوان — الانسان — :

اراني ضحوكا فينة ، ثم ناحبا

ألا ليت عقلي لا يجلي الحقائقا

أأشقى بعرفاني الفوارق ، ليتني

اذن كنت ممن يجهلون الفوارقا

— وعن شكسبير يصوغ هذه الابيات بعنـوان — حكـم — :

معاليك وعها الى غير ملتقى

اذا بت يرعى في حماك ويستقى

احب الورى كلا ، وثق في اقلهم

ولا تتخذ ايا لظلمك مرتقى

وأي نسيب ، كاذب الفضل ما خلا

اذا كان مسماح العواطف مشفقا

وليس فقيرا ضائق الثوب مثلما

يظل عديم الصبر : افقر ، اضيقا

— ومن جميل نظمه وصوغه ما يأخذه عن هوفـر حيث يقول :

ومن عجب التاريخ : كل مملك

على الناس ، قد اعلته حرية القول

فثار على الاسلاف يشكو اعتسافهم

وثور في الاخلاف شكواه بالمثل

فلما رتقى الكرسي انكر امسه

ولم يرتض حرية القول والفعل

— وهكذا ينتهي ديوان — وداعا ايها الشعر — وفي الفكر قبس يضيء ، وفي اعماق النفس منـه ذوب يضوع . والشاعر في كل ذلك عميق الفكرة ، صادق العاطفة ، سامي الهدف . متسك بعمود الشعر حافظ القيم الدينية والاخلاقية والادبية ، تشتم فيه رائحـة الماضي العريق ، وتتلمس طريقة الفحول في الصياغة .

دمشق — علي المصري

اسماعيل مظهر ومنهجه في النقد

الدكتور جليل كمال الدين

اشتهر اسماعيل مظهر بالبحث العلمي الدائب في الحقل الادبي والفكري والاجتماعي وحتى السياسي. ان اسماعيل مظهر من كتاب الطليعة في عصره . كان يقف في الطرف الاقصى من حلبة النقد والبحث لا يجامل ، ولا يداجي ، ولا يحابي . همه ان يقول رأيه ، وهمه ان يقول الحقيقة كما يراها ، دون خوف او خشية لومة لائم .

ومما ييسر الحديث عن اسماعيل مظهر ، ناقدا، كتابه الذي اصدرته دار مكتبة الحياة تحت عنوان ـ في النقد الادبي ـ . وهذا الكتاب هو مجموعة امينة لمقالات اسماعيل مظهر في النقد الادبي . فهو اذن يعرض ، في الجوهر ، وجهة نظر اسماعيل مظهر في النقد الادبي ، او ما نسميه نحن ـ بالمنهج النقدي ـ لـه .

يبين المنهج النقدي لاسماعيل مظهر في خجله مطالعاته النقدية عن العقاد ، وطه حسين ، ومصطفى الشهابي ، محمد حسين هيكل، وعلي مصطفى مشرفه، وابي خلدون ـ ساطع الحصري ـ ، ومحمد رشيد رضا ، وسلامة موسى ، وحافظ محمود ، وكذلك في خجله مناقشاته لكتاب اجانب مثل بيرون سميث ، وفرانك كرين ، ورومان رولان ، والسير اوليفر لودج وغيرهم .

ونستطيع ان نقول ، بثقة ، ان اصول المنهج النقدي لاسماعيل مظهر ، تتلخص في الموضوعية ، والروح العلمية ، والمادية . وتتفرع عن هذه الاصول جملة فروع هامة هي ايمانه بالواقعية اسلوبا للتعبير الفني ، والانسانية في النزوع المحلي العالمي ، ورفض الرومانتيكية والميتافيزيكية واللبرالية .

ففي مناقشاته الحادة للعقاد يتضح جانب من هذه الاصول النقدية. فهو ينتصر للانسان، وينتصر للعقل والارادة الانسانية ، ويرفض الميتافيزيكية واللبرالية اللتين كانتا تؤطران لبعض كتابات العقاد النقدية . ولا عجب في ذلك ، فالعقاد هو زعيم مدرسة ـ الديوان ـ الرومانتيكية في مطلع القرن العشرين في مصر ، وهو فيلسوفها وكبير نقادها ، وقد انتهت به الرومانتيكية الى اللبرالية من جهة ، والايمان بالميتافريزيكية من جهة اخرى ، بالرغم من التناقض الظاهري بين هذين القطبين ، والحال انهما وجهان لمدالية واحدة ، هي مدالية الرومانتيكية .

وفي هذه المناقشات ايضا يتضح ايمان اسماعيل مظهر بالمادية الديالكتيكية كفلسفة ، وهو يذود عنها سهام العقاد الطائشة ، ويصحح له تهويماته ، تحنطاته في هذا المنطلق في مقالته المشهورة ـ بين التصحيح والتوضيح ـ . ومظهر قريب الى الصواب، حين يقول: ويقصد بالجدلية التعبير عن تواصل الاشياء تواصلا حركيا وشمولية التغير بما تتصف به هذه الشمولية . ويخلص مظهر من ذلك الى رفض جميع الماورائيات ـ ما وراء الطبيعة ـ وهي الميتافيزيكية ، في الجوهر ، لانها مستمدة من الوجودية المثالية .

ويرى مظهر ان الروح العلمية والمادية اسمان لمسمى واحد ، وهما لا يناقضان الخير ، بل هما يفوقان الروح الميتافيزيكية الدينية ، التي يؤكد مظهر ان العقاد يزعم انها احد الجناحين اللذين لا يطير العالم الا بهما.

ان هذه التصحيحات المادية التي يقوم بها مظهر لفكر العقاد اللبرالي تقوده الى مواجهة حادة مع الدكتور طه حسين ، المعجب في اطوار ثقافته الاولى باللبرالية الغربية ، والفرنسية خصوصا ، حتى انه ليؤثر نقل الاسماء العربية للمواقع العربية بنطقها الغربي ، وذلك عندما اسمى موقع ـ مرج راهط ـ الشهير في التاريخ العربي بـ ـ مرج رات ـ الذي يدأب المستشرقون ، ولهم عذرهم ، على ترديده .

وتستمر هذه المواجهة ، حينما يصطدم مظهر بابراهيم المازني ، زميل العقاد في مدرسة ـ الديوان ـ الرومانتيكية ، والروائي القصاص الشاعر العربي المعروف . فهو يشخص احد مظاهر الضعف لدى بعض اجنحة الرومانتيكية العربية ، وكل رومانتيكية ، وهذا المظهر هو الاهتمام بالصياغة والشكل على حساب المضمون ، او على حساب الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون . ويلحظ مظهر بعين الناقد الواقعي الموضوعية ان المازني يكتب دون وعي ، وانه اديب من الطابع الذي لا يعني بالفكرة بقدر ما يعني بالصياغة وانه يتخبط في افكار غير منتظمة او غير متناسقة ، كما يلحظ اهتمام الرومانتيكيين ، ممثلين فيه ، بالفولكلور، وهو اهتمام محمود ولكنه يتحول على ايدي بعض الرومانتيكيين ، مثل المازني الى الميل الى غليظ القول على حد ما يقول مظهر .

بيد ان اسماعيل مظهر لا يحابي ، كما قلنا ، حتى لو كان حديثه النقدي يدور عن صديق حميم او رفيق في الجبهة الفكرية . ففكره انتقادي ابدا . فهو حينما يتحدث عن الرجل سلامة يخصه بالتقدير دون ان يجره ذلك الى المداجاة او الصمت عن اخطائه . فقد قال مظهر ، يوم كان صاحب مجلة العصور ، في مقاله المعنون - مع سلامة موسى حول الاسلوب العلمي - : جرت - العصور - على طريقة من النقد لم ترض الكثيرين من الكتاب والاساتذة على الاخص . وما يعنينا من شيء رضوا ام غضبوا ، ما دمنا نرضي ضميرنا ، ونقول ما نعتقد ، ولا فرق بين صديق وغير صديق . وتناولت - العصور - ، فيما تناولت ، بالنقد بعض اشياء نشرها سلامة موسى الذي لا يمكن بحال ان نحاول ان نغمطه حقه او ننكر جهوده في سبيل العلم والادب . غير ان هذا لا يصرفنا مطلقا عن ان ننقده ، ونقول بأن اسلوبه عامي ، والحقيقة انه عامي الاسلوب ، لا تجرى ديباجيته على ما تتطلب الاساليب العربية المنتقاة . . .

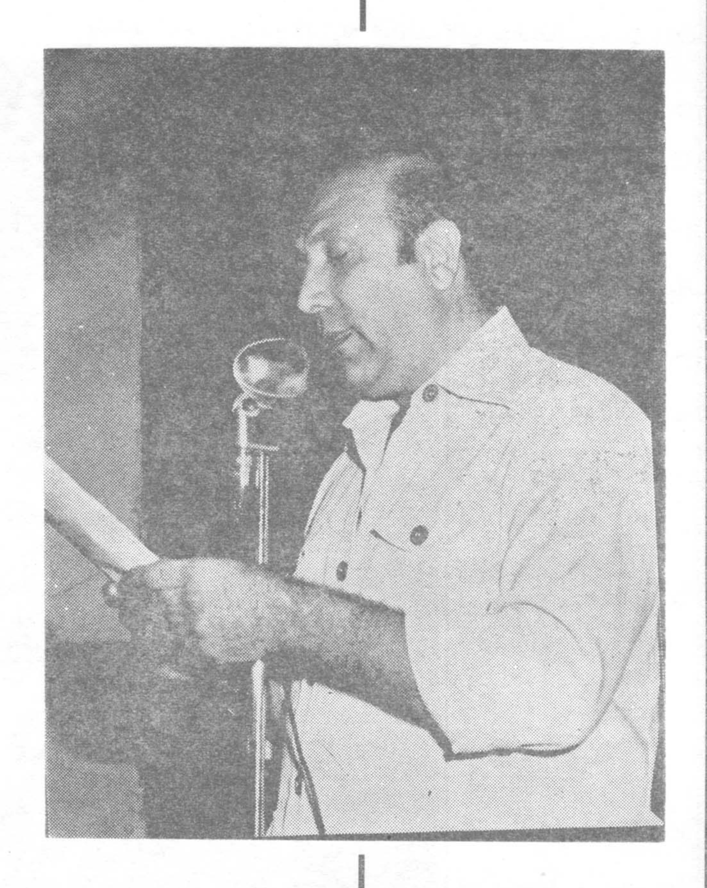
ويتجلى منهج اسماعيل مظهر النقدي الواقعي ، في اجلى صورة ، حين يتصدى لنقد بعض الكتاب الغربيين . فاسماعيل مظهر يدين التوفيق بين التقاليد السلفية وبين الروح العلمية الحديثة . ففي مقالته التي يناقش فيها السير اوليفر لودج ، وهو عالم فيزيائي كبير ، يشجب نزعة هذا العالم ، التي تفتقد تبريرها الموضوعي ، لمحاولة العثور على اساس علمي مادي لنظرية تناسخ الارواح ، ولنظرية حلول الروح في الجسم البشري ، عندما يبلغ مرحلة معينة من التطور . وينهال مظهر بسياط التقريع في مناقشته الهادفة لهذا العالم ، فيقول ، فيما يقول : واني لاعجب كيف ان سير لودج يستطيع التدليل علميا على ان الروح سكنت الجسم الحيواني بعد ان بلغ مدرجا خاصة من النشوء بل كيف يستطيع ان يوفق بين الاسلوب العلمي وبين هذه الاقوال الغريبة التي يرسلها ارسالا في جمل خطابية وابيات من الشعر فيها من جمال الاسلوب وحسن السبك بقدر ما فيها من البعد عن العلم الذي يمثله السير لودج في ناحية اخرى من نواحي نبوغه المتضارب الصور ، الكثير الالوان .

هذه هي بعض اصول المنهج النقدي لاسماعيل مظهر عرضنا لها ، ودللنا على بعضها بالامثلة دون ان ننسى ان اسماعيل كان يمثل طليعة الفكر النقدي الواقعي ، عشرينات وثلاثينات القرن في مصر ، ودون ان ننسى ان فكره النقدي كان مشوبا ، هو الاخر ، بتطرقات وتناقضات لا بد منها ، فيما يبدو ، في المحاولات الاولى ، وفي خطوات الزيادة في دروب غير مطروقة .

ولعل اكبر اخطائه هي مبالغته في النزعة العلمية ؛ لدرجة انه وقع في فخ المثالية الذاتية ، والوضعية المنطقية ، دون ان يريد هو ، طبعا ، ذلك ، ويبقى لمظهر فضل الذود عن النقد الادبي الواقعي ، ومأثرة نشر الايديولوجية العلمية في ظروف صعبة ، بالغة الدقة .

● عن البيان الكويتية ●

احسان العظم
قصة حياة



وليد قنباز

في ذروة العاصفة السياسية والاجتماعية التي اجتاحت العالم بعامة والوطن العربي بخاصة ، وفي حي البارودية من مدينة أبي الفداء وفي شهر تشرين الاول من عام – ١٩١٣ – ولد محمد احسان بن محمد بن أسعد العظم في بيت عبق بالعلم والثقافة والمعرفة ..

فالجد – اسعد العظم – شاعر وصاحب مجالس ادبية مشهورة ومعروفة مع ادباء جيله ولا سيما الشاعر الكبير محمد الهلالي ، ولقد خلف لنا ديوان شعر ضم بين دفتيه صورة عن الادب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بكل جزئياتها ودقائقها .. والاب – محمد العظم – أديب ومؤرخ وصاحب نكتة ودعابة ، وكان يملأ المجلس الذي يحتويه علما وأدبا ، فما من كلمة ترد الا ويورد عليها شاهدا او حادثة طريفة او نادرة ... وكم كان يميل الى التحقيق التاريخي ، فما من كتاب يقع بين يديه الا ويضع عليه شروحا وتعليقات ، ويشير الى المصادر ويرجح بعضها وينقض بعضها الاخر ، وكان الى هذا يتعقب نقاطا معينة ويشبعها بحثا ودراسة وتحقيقا حتى يصل الى رأي يطمئن اليه عقلا وعلما .. وزاد على هذا بأنه قرض الشعر بفنونه المختلفة على طريقة أبيه ..

ومن الجد الاديب الشاعر ، والاب الاديب المؤرخ كان لاحسان مورد ومنهل بقي يعتز ويشيد بهما في كل مجال ... فكم روى لنا أبياتا من ديوان جده ، وكم ذكر تلك الاماسي التي كان يعقدها والده مع أهل بيته، وفيها يلقي عليهم ما تعيه ذاكرته من حوادث التاريخ

والادب ، وكيف كان يناقش الاولاد جميعا في بعض المشكلات التاريخية التي يمر بها مظهرا صحة بعضها وزيف بعضها الاخر ، ولعل المرحوم احسانا وأخاه مفيدا كانا من أبرز الابناء حبا لهذه المناقشات واكثرهم ولوعا بالبحث والاستفسار والحفظ .. وكم كان يرغب اليهما في حفظ جيد الشعر وبليغه ليستمتع بسماعه يلقى بلهجة تمثيلية تفشى المعاني والافكار العاطفة ، وكانت سينية البحتري صاحبة المقام الاول في هذا المجال ..

في هذا الجو الزاخر بالادب والتاريخ والثقافة العامة مرت سنوات احسان الاولى والتي تحدد ـ كما يقول علماء النفس ـ سمات شخصية الانسان من بعد ... ولقد ارسل مع اخوته الى الكتاب حيث شاد طرفا من القرآن الكريم وشيئا من الكتابة والحساب .. وحين تعدى السابعة من عمره دخل مدرسة ـ التطبيقات ـ وكانت في موقع مدرستي ضرار بن الازور والفضيلة ويقوم المربي الكبير المرحوم محمد سليمان البارد على ادارتها ، ولعل من أبرز المعلمين الذين أثروا في احسان الاستاذين ـ صادق علوش وخالد المنجد ... الاول بما كان يجود به من روائع في دنيا الادب العربي وأساليب اللغة العربية ، والثاني في آفاق التاريخ وأجوائه اذ كان يقدم درسه بدراية وحفظ عجيبين .. ويذكر زميلا احسان في عهد الدراسة الابتدائية ـ عبد الرحمن عياش وعبد الجواد العمر ـ ان احسانا كان انيقا بالغ التهذيب ، ويتميز بفرط حساسيته حتى انه كان يبكي لدى سماعه كلمة نابية او تأنيبا وكم كان زملاؤه يحاولون تقليده فلا يستطيعون الى ذلك سبيلا .. ثم انه اشتهر وهو في نهاية المرحلة الابتدائية بالقائه الشعر بشكل خطابي وتمثيلي ، وكان يفخر بأنه المختار في الحفلات والمناسبات لالقاء الشعر وتلاوة الكلمات فهو ـ على حد تعبير معلميه ـ يعطي للكلمة اهتزازها وابعادها ...

وتقوم الثورة السورية الكبرى واحسان على عتبة الشهادة الابتدائية ، ويشهد وهو ابن اثني عشر عاما اندفاع الثائرين ووحشية المستعمرين ، وقد كان لابيه دور مشرف في هذه الثورة اثر على مركزه الوظيفي ومورد رزقه الوحيد من بعد ...

وفي عام ـ ١٩٢٦ ـ حصل احسان على الشهادة الابتدائية ، ودخل المرحلة الثانوية في تجهيز حماه ، وكانت في شارع ابي الفداء أمام مقر الاتحاد النسائي الان ، وبدت حياته في تلك الفترة امتدادا للمرحلة الابتدائية ، ولكن بأفق اوسع وأرحب ، ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن مبرزا في المواد جميعها ، ولكنه اثبت تفوقا ملحوظا في مادتي التاريخ والادب العربي .. حتى ان درجاته فيها كانت تامة في اغلب الاحايين ، وكان يدرس مادة التاريخ آنذاك المرحوم ـ نظمي الريس ـ الذي يتمتع بذهنية وقادة وبحث عميق في احداث التاريخ وشعابه مما ترك مجالا وحبا وتعلقا إكثر في اعماق احسان واما مادة الادب والنحو والبلاغة والصرف فقد نثرها في شغافه العلامة الشيخ سعيد زهور عدي ، ومن كليهما حلق بجناحين من الزمان والبيان ففدا في حال لا توصف وانطلاق لا يحد ..

وفي عام ـ ١٩٢٩ ـ رحل احسان مع عائلته الى حمص ، فلقد أقيل والده بعد انتهاء الثورة من وظيفته

كرئيس لديوان المحافظة في حماه، وبقي مدة يسعى دون جدوى الى ان تمكن عن طريق معارفه في دمشق من استعادة مركزه وحقوقه الوظيفية بشرط الا تكون حماه هي المركز .. فاختار حمص ، وهكذا دخل احسان تجهيز حمص والتي كانت في شارع حماه ثم انتقلت بعد مدة الى البغطاسية قرب ساقية الري .. ولقد عاش في هذه المدينة الشقيقة جوا اجتماعيا منطلقا ومتفتحا فتعرف الى نفر من عشاق الادب ورواده وغدا يشارك في السهرات والاجتماعات والندوات الادبية والاجتماعية ، ولمع اسمه كأديب متمكن من التاريخ وهو ما يزال طالبا ، وكان للمرحوم قدري العمر من الناحية الادبية وللمرحوم وجيه الاتاسي من الناحية التاريخية ــ في تجهيز حمص ــ دور كبير في وضع اللمسات الاخيرة في اتجاه احسان العظم وتكوينه الفكري والادبي والثقافي .

ويجدر بي ان اذكر انه خلال العطل والاعياد كان يهرع الى حماه ليلتقي باصدقائه الادباء وفي مقدمتهم الشيخ عبد الرحمن الخليل ليجلس اليهم في المقاهي أو في بيت احدهم ويشاركهم في التهام اسفار العلم والادب والتاريخ قراءة واستيعابا ومناقشة ونقدا ، ومن ابرز ملاحظات زملائه عليه انه كان دقيق الفهم لاسرار التاريخ ، واسع الاطلاع على اراء المؤرخين ، سديد البحث في تلك الاراء ، اصولي النزعة في الموازنة والترجيح بينها ، ثم له بعد رأيه الخاص، فتراه يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف الى صواب لانه مستكمل للادوات المؤهلة لذلك .. ولقد كان له في هذه الفترة اسهام مع اصدقائه في تحويل قصة ــ ابن سراج ــ للكاتب الفرنسي ــ شاتوبريان ــ الى مسرحية ، ثم اسهم معهم في اقامة اول مهرجان ذكرى للمتنبي وذلك في عام ١٣٥٤ هـ ــ ١٩٣٥ م ، بمناسبة مرور الف عام على مقتله ، وكان اول مهرجان يقام للمتنبي في العالم العربي ، ولقد ألقى احسان خلاله بحثا عن شعر المتنبي وعلاقته بتاريخ الصراع بين العرب والروم .

وعلى هذا المنوال سارت ايامه ، فكان مآلها الاخفاق في نيل الشهادة الثانوية رغم تفوقه في مادتي الادب والتاريخ ، فالشهادة ليست ادبا وتاريخا فقط . وكان رد الفعل عنده هو الرحيل عن سورية لمتابعة الدراسة بعيدا ، ولم تتم الموافقة من قبل الاب لان امكاناته المادية كانت ضحلة .. ولكن احسانا اقنعه بأنه سيكتفي بأقل من القليل وبأنه سيحاول ايجاد عمل لسد حاجته .. ونجح في مسعاه ، وابحر الى فرنسا عام ــ ١٩٣٦ ــ بعد انتقال عائلته الى حماه بشهور ، واستقر في مدينة « تولوز » واختار الحقوق لدراسته بعد ان قدم امتحانا للقبول في جامعتها بحسب انظمة الجامعات في ذلك الزمان ، فاجتازه بنجاح ، وبقي هناك ثلاث سنوات تمكن خلالها من التعرف الى ابرز مدن فرنسا وجامعاتها ومواقعها التاريخية الهامة ، وأخيرا حاز على شهادة الاجازة في الحقوق مع تمكن جيد من اللغة الفرنسية وادابها ..

وعاد احسان الى حماه عام ــ ١٩٤٠ ــ ليجد والده قد توفي خلال غيبته المتواصلة وكان اخوه مفيد حينذاك احد اعضاء اللجنة الادارية المساعدة للاستاذ المرحوم ــ قدري العمر ــ في ادارة تجهيز حماه والتي كانت في بناء ثانوية السيدة عائشة حاليا ، وكان قدري يسعى باحثا عن مدرس لمادة التاريخ ، فعرض عليه مفيد ان يكون احسان ، تلميذه ، وعاشق التاريخ والادب هو المدرس ، فلقي الرضا والقبول .. وهكذا دخل احسان سلك التعليم ودرس مادة التاريخ مدة عامين دراسيين للصفين العاشر والحادي عشر الثانويين ، لقد أظهر خلالهما قوة وتفوقا بحيث اعطى للتاريخ وتدريسه لونا محببا وبعدا جديدا ، فقد كان درسه قائما على طرح مشكلة تاريخية يعقبها مناقشة وتحقيق وكم كان يظهر أخطاء كثير من المسلمات التي كان الناس يعتقدون بصحتها ، وذلك عن طريق الحجة والمنطق والمصادر، ويرى أن الطبري هو سيد المؤرخين وابن خليكان هو سيد المترجمين .

وفي عام ــ ١٩٤٢ ــ ترك مهنة التدريس لقلة موردها المادي ، وطفق يشتغل في مهنة المحاماة علها تعطيه مدخولا اكبر يصلح من حاله وحال من يلوذ به ، فافتتح مع الاستاذين اكرم الحوراني وسعيد الخاني

مكتبا مشتركا للمحاماة في بيت يقع تحت تل الدباغة وهو محاذ لجامع المدفن من جهة الغرب ، فقد كان صديقا لسعيد بعد أن تعرف اليه في فرنسا ، وكان سعيد شريكا لاكرم .. وبهذا التأم الشمل ، ودامت هذه الفترة ثلاثة اعوام ونيفا ، ولكن واردها المادي لم يكن كما يجب ، واحسان لم يخلق لحل مشاكل الناس ولذا تركها غير آسف ، واشتغل لمدة شهور في ادارة الحبوب ـ الميره ـ وخلالها قامت الثورة على الفرنسيين في ايار من عام ـ ١٩٤٥ ـ ، وعقب انتهائها رأى ان الوظيفة بمرتبها الشهري الدائم والثابت هو مورد الرزق المقبول ، وكان عام ـ ١٩٤٦ ـ الذي شهد احسانا امينا لسر بلدية حماه خلفا للمرحوم محمود جمال الدين ، وبذا بدأت فترة الاستقرار في حياته والتي امتدت سبعة وعشرين عاما تمكن خلالها من تحقيق مرامي هوايته في القراءة والافادة والبحث والدراسة والتقصي والتحقيق .. وأضيف الى هذا انه استطاع بعد ست سنوات توفير بعض متطلبات الزواج ، وتزوج قريبة انجبت له ثلاثة ذكور وبنتا واحدة ...

ويمكن ان نرصد له خلال هذه الفترة اعمالا خالدة في دنيا الادب والفكر ، فقد سعى جهده لاقتطاع هذه الارض التي نحيي ذكراه عليها وعمل على بناء دار الكتب الوطنية وتأسيسها عام ـ ١٩٤٩ ـ وأشرف بنفسه على تجهيزها ورفدها بالكتب حتى استوت صرحا ممردا ينطق كل حجر فيه بعد ان صار الى مركز ثقافي بجميل احسان ... وأيادي احسان ، وهو الى هذا من الاوائل الذين اقتطعوا قطعا كثيرة من الاراضي للمدارس في جوف الاحياء لا الاطراف وذلك عند توزيع الاراضي الاجباري ، ويذكر زملاؤه في البلدية حماسته لكل أرض مناسبة لدور العلم والتعليم .. وهو الذي كانت له اليد الطولى في حفل تكريم مفتي حماه السابق المرحوم الشيخ سعيد النعسان ، وفي ابقاء المنزل ـ الهدية ـ باسم المفتي لا باسم دائرة الافتاء لان المكرم ـ في رأيه ـ هو المفتي ، والبيت يجب أن يكون له .. وهذه الاعمال لها صلة بعمله كأمين سر للبلدية ، على ان هناك اعمالا لا تخضع لحصر أسهم فيها في سبيل اعلاء شأن الفكر والثقافة واغنائهما ، فقد كتب المحاضرات القيمة ، ونشر الدراسات المستفيضة ، وشارك في الندوات الادبية والفكرية ، وكان مهرجان ابي الفداء ذروة عطاءاته اذ قدم بحثه الرائع ـ حماه في عصر ابي الفداء ـ والقاه على منبر المدرج الكبير في جامعة دمشق امام نفر من كبار العلماء والباحثين والادباء ، ولقد سمعت بنفسي عبارات الاطراء والثناء التي تهافتت عليه بعد فراغه من الالقاء ..

ولم يكتف خلال هذه الفترة بما وعت ذاكرته من معلومات واحداث ، بل كانت جلسات القراءة والبحث والدراسة مستمرة .. في المقاهي ... في البيوت .. وبخاصة بعد ان انضم اليها وافدون جدد من امثال ـ سهيل عثمان والدكتور عادل زكار ولؤي عاشق .. وغيرهم ، مما جعل ثقافته العامة نادرة المثال ، وغدا يمثل الموسوعية والرواية الواسعة باشمل معانيهما .

وفي نهاية عام ـ ١٩٦٤ ـ اصيب بنوبة قلبية حادة اثر ـ جلطة ـ طرحته الفراش وكان وقتها يقرأ في بيته مع نخبة من اصدقائه .. وما ان استعاد قلبه اتزانه وشرايينه هدوءها حتى عاد الى سابق عهده في كل شيء .. فكانت الجلطة الثانية في ربيع عام ـ ١٩٦٥ ـ خلال اشتراكه في تشييع جنازة احد موظفي البلدية ، ولقد نبهه الاطباء الى خطورة حاله ونصحوه بالبعد عن الارهاق وشرب القهوة والتدخين ... فنفذ هذه النصائح اثر وقوعه فريسة المرض ، وسرعان ما عاد الى امسه بعد مرور فترة النقاهة ، فاذا علب الدخان يرفد بعضها بعضا ، وفناجين القهوة تترامى على مراشفه واذا هو يقوم برحلات سياحية داخل القطر وخارجه ، واذا هو يعد العدة لكتابة الابحاث والدراسات ، ومن ابرزها كما قال لي اكثر من مرة كتابة تاريخ حماه قبل الفتح الاسلامي وبعد الثورة السورية الكبرى ، وآية ذلك أن مؤرخنا الكبير قدري الكيلاني قد بدأ تاريخه الضخم عن حماه مع الفتح الاسلامي وأنهاه بنهاية عام ـ ١٩٢٥ ـ ، فكان احسان رحمه الله يرى ان عمله سيجعل التاريخين متكاملين .

وارى لزاما علي ان اسجل بأنه في عمله الوظيفي لم يكن متميزا ، فهو يرى الوظيفة مصدر رزق ، ويعمل ما يمليه عليه ضميره ووجدانه ، ولقد ذكر لي خالد الاسود رئيس ديوان البلدية وكثير من موظفيها بأنه كان عفا خلوقا ، لم يطلب طوال مدة خدمته مطلبا شخصيا حتى انه رفض تبديل اثاث مكتبه رفضا قاطعا ، وانه كان بالغ التهذيب مع الجميع ، حريصا على مشاعرهم ، وكأنه بهذا يحرص على مشاعره ومكانته وسمعته .. وأما المراجعون ـ وما اكثرهم ـ فكانوا بين من يهدف الى مصالحه الخاصة ولقاء احسان بهذا النوع عادي وروتيني ، وكم كان يثور من الالحاح ومحاولة تجاوز القانون فيهرع اصدقاؤه في البلدية يعملون ما في وسعهم لتخليصه مما هو فيه وسرعان ما يعود الى مرحه وهدوئه .. وبين من يعشق الادب ويعمل في دنيا الفكر ولقاء احسان بهذا النوع رائع وشائق ، فاذا غرفته ندوة تطوف في عوالم متعددة واذا الاحاديث علوية سامية ، ومن ابرز فرسان هذه الجلسات : هاشم الصيادي وشوقي الكيلاني وعمر يحيى وقدري الكيلاني وعبد الرحمن الخليل واضرابهم .... ولم يقف عند هذا الحد بل انه كان يتحدث في الادب والتاريخ مع من يرى لديه ميلا ولو بسيطا الى الثقافة والفكر .. فبينما يدور الحديث حول الجدار والتجاوز والطريق والرخصة اذا بابن الرومي والمعري وابن خلدون والطبري يحلون محل ذلك كله ...

واستمر احسان ينهل ويغدق غير آبه لصحته المتدهورة وحالته الخطرة، فكان ان اختار له المسؤولون في العام نفسه ، عام ـ ١٩٦٥ ـ منصب رئيس للدائرة القانونية في البلدية ، وبقي كذلك حتى مطلع عام ـ ١٩٧٣ ـ حيث أحيل على التقاعد بعد خدمة دامت سبعة وعشرين عاما .. وفي عام ـ ١٩٧٤ ـ اخذت النوبات تتوالى عليه باستمرار وبخاصة بعد ان انضم مرض الربو الى اثار الجلطة القلبية ، فكان تضخم القلب او ما يسمى طبيا بمرض ـ القلاب ـ وحين تنتابه النوبة كان يعاني من ضيق التنفس حتى ليظن من يجلس امامه ان الروح ستفارقه ، فالعرق الفزير يتصبب ، والعينان تجحظان ، والتشنج يبدو في وجهه واطرافه ، وحاجته الى الهواء .. ماسة .. ماسة .

وليس هذا فقط ، بل ان الكبد عانى من تسرب الداء ، وبذلك اصطلحت عليه العلل وتوافرت الادواء التي بلغت غايتها عام ـ ١٩٧٦ ـ وبخاصة بعد وفاة ـ شقيقته التوأم ، فاضطر مرغما الى هجر القهوة والتدخين نهائيا وكانا شغله الشاغل ، واخذت الادوية تتوزع جيوبه باستمرار ، ورغم هذا لم ينقطع عن المطالعة والكتابة والدراسة والرحلات ، فقد كان محبا للحياة ، متعلقا بها غاية التعلق .. وكان يكره ذكر الموت ، ويناشد اصدقاءه الا يذكروا له اخبار الموت من قريب او بعيد حتى يبقى شاعرا بالبهجة والحياة والانطلاق .

وفي هذا العام نفسه انتقل من بيت العائلة في حي البارودية بعد استملاك البلدية له وابتاع بثمنه شقة في حي الشريعة رأى في جنباتها الهدوء ، وخلد الى المطالعة ، وكان له مجلس عشية الجمعة يدلف اليه فيها نفر من اصدقائه وكلهم اديب ومفكر ومتذوق ، وينقضي المجلس بين دنان العلم ومجاني الادب والفكر ...

ومع ربيع العام الحالي بدأت صحته تتدهور ، وبدأ الداء ينخر في جسده الواهي وطفقت الاحلام تنذره ، وراح قلبه يحدثه بقرب رحيله ، حتى انه شرع في طلب رؤية اخوته واصدقائه قبل وفاته بنحو عشرين يوما ، ثم كانت لديه كتب مستعارة من مكتبة المركز الثقافي فقام بجمعها واعادها كاملة ، وقبل الوفاة بيومين سهر عنده بعض اصدقائه المقربين فانطلق ـ على غير عادته ـ يتحدث عن الموت باسهاب ، ثم انشد بيت الشاعر حافظ ابراهيم :

آذنت شمس حياتي بمغيب
ودنى المنهل يا نفس فطيبي

ثم بكى بحرارة زائدة .. زائدة ، وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من تموز الماضي استيقظ مبتهجا ، اذ عادت له صحته وتوفرت له العافية ، فنزل الى المدينة ، وعاد الى البيت وكله مرح وهمة ونشاط ، وفي الاصيل جاءه لؤي العاشق واصطحبه معه بنزهة في سيارته وطاف به اثناءها المدينة وضواحيها ، وكان احسان يتحدث عن ذكرياته في كل مربع وصوب ، ويتطلع هنا وهناك ويحيي كل من يراه ، وكأنه في ذلك جميعه كان يلقي عليها كلها نظرة الوداع الاخيرة ... وعاد الى البيت بعيد الثامنة مساء وداعب زواره من اهله الاقربين ، ثم دخل غرفته وقرأ لمدة ساعة ، واستسلم اثرها للنوم بعد ان هيأ حقيبته للسفر صباح اليوم التالي الى دمشق ومنها الى عمان لاستشارة الاطباء في حالته الصحية المتدهورة، ولكن القضاء كان اسرع ، اذ استيقظ في الساعة العاشرة والنصف ليلا وغادر فراشه فسقط في ممر البيت وقد فارقته الروح مستسلمة لبارئها ...

وعلم الاهل والاصدقاء برحيله الى دنيا البقاء ، فدلفوا الى بيته متسارعين والدموع تتساقط حسرة وحزنا والما على من كان يملأ البيت والمجلس بهجة ومرحا وحبورا ... وعصر الثلاثاء الخامس والعشرين من تموز عام ـ ١٩٧٨ ـ شيعت حماه بمختلف طبقاتها وهيآتها مؤرخها واديبها البحاثة احسان العظم الى مثواه الاخير بين العبرات واللهفات والدعوات ...

ذاك هو حسان العظم الالوف المألوف والذي تتقبله النفس بسهولة ويسر .. لانه بعيد عن التقبض والتكبر فقد كان شعبيا بكل ما في الكلمة من معنى ، وجليسه لا يمل من مجالسته أبدا لكثرة حبه المرح والنكتة حتى ولو اصابته وكان هدفها ، وهو الى هذا متواضع وامين لا يحب الاذى والضرر ولا المشاكسة والعداء، وكان انفعاليا سريع الغضب وسريع الرضا ايضا في الوقت نفسه ، ومهذبا لا تسمع منه كلمة نابية ، وموضع ثقة يجعلك تسلمه سرك وهواجسك دون خوف او وجل .. وكان يحب الحياة البسيطة الهادئة التي تمشي وحدها وبنفسها ، ويطرب للجيد من الشعر والرائع من النثر ، ويؤمن ايمانا لا حد له بادباء حماه المعاصرين وقدرتهم على التعبير والعطاء وكان جريئا على قولة الحق في العلميات ، ولكن الجرأة منه يلطفها الوقار ، والوقار فيه تزينه الجرأة فيأتي من ذلك مزاج خلقي لطيف ، متساوي الاجزاء ، ملتحم الخلايا ، قل ان تجده في كثير من الباحثين والدارسين المعدودين ، وكان فوق ذلك جميعه مؤرخا وباحثا وأديبا يتميز بغزارة الاستشهاد وحضور البديهة ودقة المناقشة ، ويعتقد الاعتقاد كله ان المطالعة غذاء الموهبة وباب المعرفة ...

فيا اخي الغالي أبا أنس ...

لقد كنت منا منبع الانس ، وروضة العطاء ، ودوحة الحب والادب والفكر ..

فسلاما .. ولا اقول وداعا

ابت النفس ان تراك عديما

عشت فوق الثرى عظيما .. فأحرى

بك ان تسكن السماء عظيما

والسلام عليك في الخالدين ...

حماه ـ ١٦ـ٩ـ١٩٧٨

وليد قنباز



جانب من المشاركين في حفل التأبين

رثاء

منذر الشعار

صبت لـك الشمس من صهبائها جاما ... ومرغ الورد في خديك أنغاما
ولم تزل هذه الانفاس لاهبة ... حتى استحالت على نجواك انساما
هذي نواعيرك اللاتي بلغن مدى ... يخلعن في الدوران اليوم والعاما
حماة • يانجمة الشام التي برقت ... لقد رأينا ببابي نهرك الشاما
أنت الشباب وان اعرقت في قدم ... انت الحقيقة اصداء وأحلاما
مالي أراك على دمع وقد ضحكت ... رياضك الفيح أوراقا واكماما
وما لنهرك في هم وفي كدر ... وكان يختال في الجنات بساما
قالت فقدت عزيزا كان يقدرني ... ويملأ الدار احسانا وانعاما
مضيت عنا سريعا يا أبا أنس ... ومر عمرك في الاصحاب أياما
كأن علمك لم يهزز قوافينا ... ولم يزل نقدك البناء اوهاما
كأن فنك لم يشحذ صفائحنا ... لرد باغ ولم يغلق بنا الهاما
كأن صوتك لم يحضر لمجلسنا ... أبا العلاء وحسانا وهماما
ياليت شعري وقد أصبحت في عدم ... اللوقار وجود ام لقد غاما
خلت حماة من الاستاذ متئدا ... يمشي وقد جبت التقوى له الذاما

كنت الفتى العربي الندب مغتبطا … بالمستفيد وللمغرور صداما
كنت المداد لاقلام اذا كتبت … وفوق اكثر فن القوم قواما
ان زرت أي مكان في حماة سما … قصدا وسرب بيان فوقه حاما
وتعشق الكتب عشقا لا انتهاء له … بها فؤادك لا بالغيد قد هاما
اذا سألتك عن علامة ندس … نسبته لي أخوالا واعماما
وليس تسأل عن علم ولا أدب … الا استفضت وقلت الحق اتماما

وان أتيت بسفر حرفه سهر … سردت ما فيه اخبارا واعلاما
خزانة كنت لكن لا انفتاح لها … الا بما يسأل الطلاب الهاما
وكنت جلدا على التحقيق مجتهدا … وتجبه الرزء صبرا ان هو اعتاما
بكت عليك حماة العلم ناجبة … صحائفا لم تعد تتلى وأقلاما
عشرون عاما قضيناها مطارحة … على لقاء فما دمنا ولا داما
كنا اذا اشعل الاخلاص مجلسنا … دسنا بثروتنا م الشعر اعداما

روض تضمخ لي عطرا وساقية … نشوى ، وترسل في الانحاء اكراما
وما أردنا مع الآداب كاسية … وما حفلنا مع الارواح أجساما
لم تنس انك جندي التراث وقد … شهدت باريس والتاريخ قد قاما
فجلت فيهم مجال الحق واعترفت … لك الفضيلة ان قد كنت مقداما
يا ابن الاديب لقد اولتينا ادبا … يا ابن العظام لقد خلفت اعظاما
قد غبت عن معشر كانوا رأوك أبا … فقد غدوا اذ نزلت القبر أيتاما

درا جنوا بك في الماضي محاضرة … واليوم يجنون احزانا والآما
قد كنت تسمع شعري ثم تمدحه … فمن له اليوم والانصاف قد ناما
من الصبا الغض مهدت السبيل له … فلم يهب بعدها خوفا واحجاما
وكنت تبرم دوما من بني بلد … ليسوا اذا أدلت الاداب حكاما
مستهترين بأصباغ بلا هدف … ويقبلون على الاصنام أصناما
لا يسمعون فصيح القوم من سأم … ويسمعون مع الاعجاب تمتاما

منذا يفضل امرارا على عسل … الا اذا كانت الاذواق أسقاما
لو كان مثلك في عصر مضى لفشت … اراؤه وتدانى المجد فاستاما
لو كان مثلك في حيث النهى شرف … رأى لك الناس أعوانا وخداما
لقد مضيت عن الدنيا وباطلها … وكان شافعك الميمون اسلاما

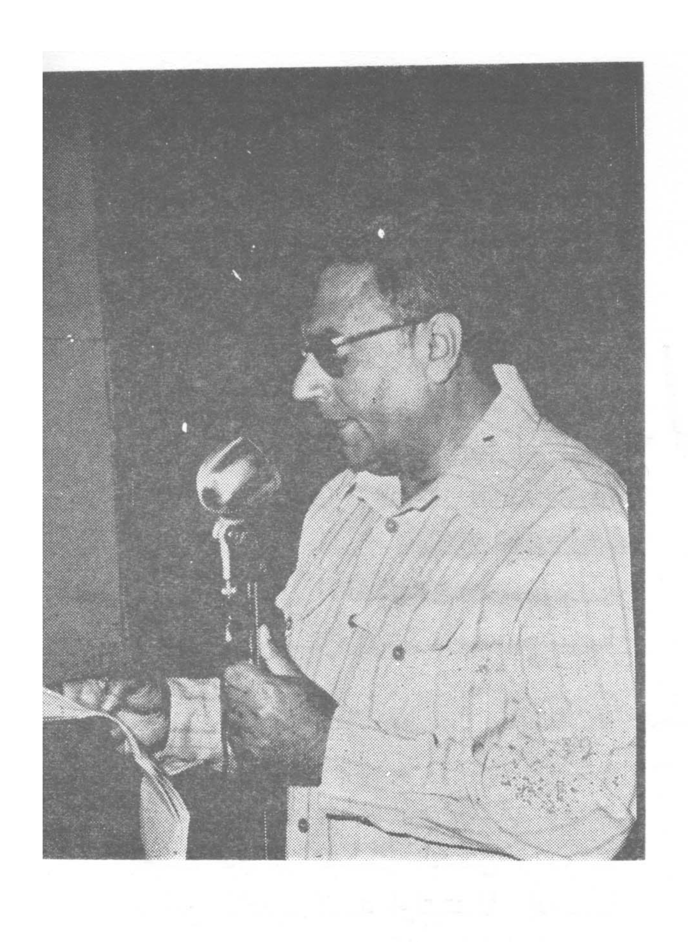
الحق بسامي الذي قد كنت تقدره … قدر الرجال ولا تألوه اكراما
وقل له لم يعد في الصاحبين سوى … قدرى شديدا على الاحداث صمصاما
اذهب فرغت من الاعباء مثقلة … وقد هدأت وجاء الموت حساما

ونحن فوق اديم الارض في صخب … نسير نحو الخصام المر ارغاما
اصبحت في ساحة الرحمن مرتجيا … وكل عنك الورى صحبا وأخصاما

احسان العظم

رجل الثقافة والعلم

عبد الرزاق الاصفر



كالمصباح يستمد الزيت المبارك ويضيء للناس بينما تذوب ذبالته قليلا قليلا ، تلكم حال العلماء والادباء . وأنا أقول : انهم أجل قدرا وأعلى مكانا . فالمصباح يحمد مادام متقدا . فاذا انطفأ شمله الظلام والمستصبحين ، أما أولئك فعلى مدى الزمان ، من الائهم ، شعل مضيئة ومن اثارهم خيرات وفيرة ، وما أشبههم بالشجرة المباركة تؤتي أكلها كل حين باذن ربها . وتلك لعمري حال احسان ، استاذنا الذي عبر في دنيانا كما يعبر حامل العطر ، يهديك مسا من طيبة ، فاذا أنت من أثر ذلك الطيب في متعة وانتعاش ، واذا أنت تحمده مقيما ومرتحلا ولا تزال في ذاكرتك له أروع صورة وأطيب ذكرى ... أليست هذه صفة المؤمن الصالح التي حدثنا عنها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورفعها فوق حال الرجل المؤذي الذي شبهه بنا فخ الكير ، اذا لم يحر ثيابك بعض شرره اذى عينيك وزكم أنفك بدخانه ؟ .

كان احسان مثلا في العطاء ، دون أن يتبع العطاء بائة وأذى ، كالنحلة لا تأكل الا طيب ولا تطعم الا طيبا ، وا كانت النحلة تعطي الشهد الذي فيه شفاء الابدان فا احسانا كان يعطي العلم الذي فيه شفاء الامم وحيـ الناس . كان يتمتع بأخلاق العلماء ، نفس رضية ، وطبا مهذبة ، وهمة عالية ، وقلب رحيم كبير ، وسريرة صافية ولسان صادق حلو الحديث وكرم مع تواضع ومحبة للجميع ومعشر مؤنس ، وجانب حفيض لين . ونحن انما نرثي فيـ هذه الصفات ، وأكرم بها من صفات ، وأجدر بنا أن نتحلى بها ونروض أبناءنا وأحفادنا على التحلي بها لانها صفا العربي المؤمن النبيل .

واذا كان من حق احسان على مجتمعه احياء ذكراه ، فاولى من يبادر الى ذلك ، هذه الدار والعاملون فيها، الذين كانت تضمهم اليه أوثق الروابط والصلات وربما كنت شخصيا أكثرهم حظا في صحبته وملازمته والاستفادة منه ومشاركته في تسبيل موارد الثقافة والعلم لجميع المواطنين وهي مهمة المراكز الثقافية ورسالتها الى المجتمع ٠ لقد صحبته أحد عشر عاما في أروقة هذه الدار وكان لي قبل ذلك شرف التلمذة عليه في سن اليفاع حين جاء احسان الى المدرسة المحمدية الشرعية ليدرس اللغة الفرنسية في الصف السادس . أوائل الاربعينات متبرعا لامتكسبا ، بالرغم من حاجته الماسة الى المال بعد عودته من أوربة وقبل أن يجد عملا يعيش منه ، ولا أزال وزملائي نذكر له هذا الفضل اذ أحسن تدريسنا وحبب الينا اداب اللغة الفرنسية ولا سيما العاطفية بلهجة مشبعة بالحزن والعظمة ٠ ومضى ذلك العام وبقيت له في نفوسنا مشاعر المحبة والاحترام والتقدير ويبدو أن التعليم لم يرق لاحسان كمهنة و لاالمحاماة أيضا ، وأنه انما فضل الوظيفة الادارية لانها تساعده على متابعة مطالعته وتتيح له فراغا مسائيا ، واستقرارا نفسيا لابد منهما لمن يهوى صحبة الكتب ٠

لقد شغل احسان وظيفة أمين سر لبلدية حماه،وكأنما كان مع حماه والقدر على موعد حتى يسهم بمساعيه وجهوده في اعطاء المدينة مؤسسة كانت ذات شأن كبير في حياتها العلمية والثقافية والفنية ألا وهي هذا المركز الثقافي الذي بنته البلدية باسم دار الكتب الوطنية . ولهذه الدار قصة لعب فيها احسان الدور الرئيسي ، فقد استملكت البلدية مكانا وخصصته ضمن التنظيم الجديد ليكون حديقة عامة ٠ ولما تقرر انشاء دار الكتب كان هذا مخالفة لمرسوم الاستملاك استدعت احتجاج المالكين الاصليين ومطالبتهم بتعويض ٠ وهنا يسافر احسان العظم الى دمشق فيقنع المالكين ويأخذ منهم الموافقة على هذا التغيير ٠ ويمضي مشروع المكتبة في طريقه وتأتي مشكلة الاساسات وصعوبة تنفيذها بسبب القرب من النهر ٠ ويصادف أن تكون في حماه شركة تقوم بانشاء أساسات جسر الضابط شفيق العبيسي ومبنى الهاتف الالي بطريقة الاوتاد ولكنها كانت تتأهب لمغادرة المدينة بعد انهائها عملها ، فيسعى احسان لدى المسؤولين للضغط على الشركة واقناعها بالبقاء لتنفيذ أساسات المكتبة ، ويشيد البناء وتنتهي الاعتمادات المالية قبل الانجاز ، ثم تأتي عقبة التأثيث والتجهيز ثم تأتي قضية تأمين الموظفين ودفع مرتباتهم ، وكلها صعوبات مالية كان لاحسان الباع الطولى في تذليلها . وقد تحمل في سبيل ذلك الكثير من المشقات وتكبد الكثير من النفقات وسافر عشرات المرات بين حماه والعاصمة كل ذلك ليرى هذا المشروع ظاهرا الى الوجود فكانما هو مشروعه الخاص ولابد من الاشارة هنا الى مساعيه في نقل المكتبة الخيرية وبقايا مكتبة نوري الكيلاني التي كانت في جامع الشيخ ابراهيم أولا ثم في جامع المدفن ثانيا الى المكتبة الوطنية مع موظفها الوحيد المشرف عليها ٠

ثم سعى احسان لتعيين المرحوم سامي السراج مديرا لها ٠ وكان يحمل في نفسه تقديرا عظيما لادبه ونضاله ويرى أن من الواجب تتويج هذه المؤسسة العلمية بمثل هذه الشخصية العظيمة وأن في ذلك بعض المكافأة لسامي السراج بعد نضاله المرير وغربته الطويلة عن الوطن ، ومواساة له في ضائقته المالية بعد عودته الى البلاد في ظل الاستقلال ٠ وهكذا يعين سامي مديرا لدار الكتب بمرتب ضئيل لا يكاد يسد رمقه ولا يتناسب مع مكانته القومية والادبية ٠ ولا يزال احسان العظم ساعده الايمن في تنشيط المكتبة وتغذيتها واقامة المحاضرات والندوات حتى تنتقل الدار الى عهدة وزارة الثقافة والارشاد القومي آن أنشئت

عام ١٩٥٨ في أوائل عهد الوحدة ٠ وهنا يسعى احسان لنقل سامي الى هذه الوزارة وتعيينه بالتعاقد بمرتب شهري جيد هو ثمانمائة ليرة سورية ويسعى من جهة ثانية لتسريحه من البلدية واعطائه تعويضا مناسبا اسهم في تسديد ديونه وحل ضائقته المالية ومصاعبه المعاشية ٠ وكان احسان يقوم بكل ذلك دعما للمكتبة الوطنية ووفاء لحق ذلك الاديب الكبير والشيخ المناضل الجليل ٠ وكل من رافق تلك المرحلة يتذكر احسانا وساميا في كل محاضرة يتعاقبان على هذا المنبر ويتبادلان العون والمشورة ولا يكادان يفترقان ٠ ولما توفي سامي لم يتخل احسان عن المركز الثقافي بل ظل صديقا له ، يحضر جميع نشاطاته ويسهم فيها محاضرا ومناظرا ومناقشا ، ويلازم المكتبة مطالعا وباحثا ويؤازرها بكل ما يستطيع وكأنها مكتبته الخاصة وما زال هذا راتبه حتى توفي رحمه الله وكان قد مضى على انشاء المركز بضعة وثلاثون عاما فهو بحق أبو المركز الثقافي والمكتبة الوطنية وقد سافر مرة الى أوروبا فلم ينس أن يحمل للمكتبة هدية المسافر فقدم اليها فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ليدن بهولندا وتاريخ الديانات العام الذي يقع في خمسة مجلدات ضخمة ابتاعه من فرنسا بما يوازي ألف ليرةسورية وسافر مرة الى العراق فحمل الى المكتبة كتابا عربيا نفيسا ٠ وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تعاطفه الشديد مع المكتبة ٠٠ التي عمل لانشائها والتي يعتبرها كأحد أبنائه ٠ وقد قدرت له وزارة الثقافة هذه الاريحية فأهدت اليه مجموعة من مطبوعاتها مرافقة بكتاب شكر ٠

كان احسان يعد الكتاب خير أنيس وجليس والمكتبة خير مكان يجد فيه الراحة والمتعة ٠ وكانت مكتبته الخاصة العامرة بالكتب والمراجع تستأثر بكثير من وقته . يخلو فيها مطالعا وباحثا والكتب تملأ طاولته، فاذا دجى الليل رافقته الى مخدعه ٠ وحين لاتسعفه كتبه بحاجته يهرع الى مكتبة المركز الثقافي التي يؤثرها بحبه وتحنانه ، وكم يحلو لك أن تراه هناك وهو يجول بين الخزائن والرفوف يتناول كتابا ويعيد كتابا ، ثم يجلس الى طاولة المطالعة ويضع نظارتيه وبجانبه قرطاس وقلم ٠ ثم يغيب عما حوله ساعات غارقا في متعة لذيذة يدون من هنا شاردة ومن هناك واردة حتى يرتوي ويشبع فضوله العلمي ٠ ثم ينهض فيعيد كل شيء الى مكانه ويجلس معنا برهة يتنفس فيها الصعداء ، ويرشف نفسا من لفافته – أيام كان يدخن – ويحدثنا عما قرأ وبم ظفر وهو يستشعر سعادة عظيمة اذ يعيش في أصداء وأجواء من نشوة الباحث الذي فاز بضالته بعد التعب والعناء ٠ وكان هذا شأنه في معظم الايام ، ولاسيما بعد التقاعد ٠

كان احسان يرى المطالعة ضرورة لاترفا ٠ ويأسف على على كل يوم يضيع منه بدون أن يستفيد علما جديدا ٠ قال لي مرة : لقد شبعت من كل لذائذ الحياة الا من العلم ، واذا كنت أحب أن أعيش فلأمرين : اكتساب علوم جديدة في عصر تفجرت فيه ثورة العلم ومجالسة الخاصة من المثقفين واهل العلم ٠

ولم تكن مطالعته فوضوية بل لابد أن تكون موجهة الى هدف مخصوص ومسخرة لغاية معينة كقضية أثيرت وهي تحتاج الى مزيد من البحث والتحقيق أو حادث أثار لديه بعض الفضول والتداعيات أو سؤال طرح عليه من قبل مستفيد يود الوقوف على جواب وثيق له ٠ حينذاك نرى احسانا ينصرف بكليته الى البحث ولا يهدأ حتى يصل الى الغاية المرضية ٠ وربما توسع لديه البحث فأصبح محاضرة ٠ وكان احسان يتعرض للسؤال ويحث الاخرين على أن يسألوه ولطالما سمعناه يردد الكلمة المأثورة عن علي بن أبي طالب اسألوني قبل ان تفقدوني، وقوله : ان في صدري علما لو

وجدت له حملة ٠ وما أشد غبطته حين يؤدي لانسان خدمة علمية فيرشده بها بعد أن اختلطت عليه المسالك والتأثت أمامه السبل ٠ والكرم في العلم صنو الكرم بالمال ٠والكريم فيهما سعيد بعطائه وكأنك تعطيه الذي أنت سائله ٠ كما قال زهير ٠ على أنها صفة أصيلة فينا نحن العرب الذين علمنا أسلافنا الكرام أن لا قيمة لعلم حبيس الصدور والسطور وأن العلم لايزكوا الا مع الانفاق وأن العالم معذب بعلمه اذا لم يعمل به أو اذا حبسه عن قومه ٠

أما عن شأن أبي أنس رحمه الله مع صنوف النشاطات الثقافية الاخرى ٠ فحدث ولا حرج ٠ ان رواد المركز الثقافي افتقدوا مكانه بينهم ٠ فقد كان يشارك في معظم الاشكال الثقافية من محاضرات وندوات مشاركة الفعال لا مشاركة المنفعل ، ويقبل عليها اقبال الجاد لا اقبال المجامل ٠ واذا حدث أن وجدنا مكانه خاليا علمنا أنه اما مسافر أو مريض وكان يحرص على حضور المسرحيات الجيدة نصا وتمثيلا ويشجع العاملين في الحقل المسرحي ، ويشهد المعارض الفنية للرسم والتصوير ويشجع الفنانين الناشئين ، ويغشي الامسيات الشعرية والادبية التي تقيمها النوادي الثقافية تشجيعا لها ٠ ولا ننسى مبادرته المبكرة مع بعض الشباب المثقف في مدينة حماة لاقامة مهرجان لاحياء ذكرى المتنبي في عام ١٩٣٥ واسهامه في المهرجان الذي أقامته وزارة التعليم العالي عام ١٩٧٤ لاحياء ذكرى أبي الفداء بمناسبة مرور سبعمائة عام على ولادته وكان ذلك في دمشق وحماه ، حين ألقى احسان بحثا ضافيا حاز على الاعجاب والتقدير في الاوساط العلمية ٠ هذا اضافة الى جهوده الخفية التي كان يبذلها لانجاح الاحتفالات الاجتماعية والثقافية التي تقام على نطاق جماهيري ٠ وقد كان له شرف السبق الى اقتراح تكريم مفتي حماه الاسبق الشيخ سعيد النعساني في حياته ٠ فذهبت هذه سنة طيبة تتبع في حماه لتكريم أعلامها ، وحذت حذوها بعض المدن السورية الاخرى ٠

وكان احسان يحب أن يغشى مجالس العلم والعلماء وينفر عما سواها ٠ واذا حضرت في أي مجلس استطاع أن يوجه دفة الحديث نحو الامور الادبية والتاريخية ٠ وأخذ بقلب محدثه واستأثر بانتباهه ، وأثار اعجابه بما يورد من الحوادث والشواهد والادلة والمقارنات ٠ واذا أصغى الى محدثه أحسن الاصغاء والانتباه ووعى كل ما يقال وربما عقب على حديثه بأدب واحترام وتواضع تعقيبا يفصل المجمل أو يكشف الغامض أو يسد النقص أو يقوم المعوج وكانت ملاحظاته ترد عفوا وتعتمد على مجمل مخزونه الثقافي مع حضور بديهة وسعة اطلاع وحضور ذاكرة ٠ واذا ذكرنا سعة ثقافته فلا بد أن نذكر شدة اهتمامه بالادب والتاريخ ولا سيما ما يتعلق بتاريخ حماه ٠ حتى غدا مرجعا في هذا المجال ٠ وكم من طالب جامعي يعد دراسة عالية أحاله مدرسوه الى حماه لزيارة احسان وصنوه قدري الكيلاني حفظه الله ليأخذ عنهما التوجيهات والمعلومات التي تضيء له سبيله وتساعده في بحثه ٠ وكان احسان شديد التحقيق للروايات والمقارنة بينها حريصا على معرفة سني الولادة والوفاة والحوادث ويعد ذلك رأس التحقيق التاريخي ٠

لم يترك احسان تآليف بالمعنى المعروف ، وانما ترك مجموعة من البحوث والمحاضرات والمقالات يدور معظمها حول المحور التاريخي ٠ بعضها مطبوع ومنشور وبعضها مخطوط وبعضها الاخر مسجل لدى مكتبة المركز الثقافي الصوتية ٠ وقد استطعت أن أحصي منها ما يلي :

١ ـ الحضارة بين التاريخ والاثر وعلاقة الشعر بهما وهو بحث تاريخي أدبي يبين أهمية الاثار والنصوص الادبية للباحث في تاريخ الحضارة بمقارنتهما مع الروايات التاريخية ٠

٢ ـ فائدة في التاريخ وأصول بحثه ·

٣ ـ المقارنة بين مفهومي الحضارة والمدنية ·

٤ ـ ترجمة لابن الهيثم ·

٥ ـ بحث عن ـ ابن ميمون الحبر اليهودي الاعظم والصهيوني الاول ـ ·

٦ ـ نواعير حماه ـ بحث ـ

٧ ـ حماه عبر التاريخ ـ محاضرة ـ

٨ ـ المشاركات الحموية في الاحداث اليمنية · ـ محاضرة ـ ·

٩ ـ نضال حماه في القرن العشرين ـ محاضرة ـ

١٠ ـ أبو الفداء ، وهو بحث ألقي في مهرجان احياء ذكرى أبي الفداء عام ١٩٧٤ ·

١١ ـ قبرص وهذه محاضرة ألقيت في المركز الثقافي ونشرت في الفداء ومجلة العربي ·

١٢ ـ مقالات صغيرة في : الدعوة الاسلامية ـ وتراث المطالعة ـ وأصل تسمية المهرجان ·

١٤ ـ المشمش · مشروع بحث علمي وأدبي جمعت مادته وأصوله ولم يكتب ·

١٥ ـ مقالات وتعليقات وشذرات متفرقة في موضوعات مختلفة نشرت في جريدة الفداء مثل تحقيقه في تاريخ علم الطب البيطري واصل تسمية بهذا الاسم وتحقيقه بين كلمة جراحي أو جرائحي وأيهما أصح ··· وغير ذلك ·

ولا يفوتني أن أذكر أن أبا أنس كان يعالج الشعر في بعض الاحيان وان لم يعرف في الناس كشاعر · ينظمه حين تدعوه مناسبة هامة وقد عرفت له قصيدتين مطولتين احداهما في رثاء جمال عبد الناصر ، والثانية في رثاء الشيخ محمد الحامد ·

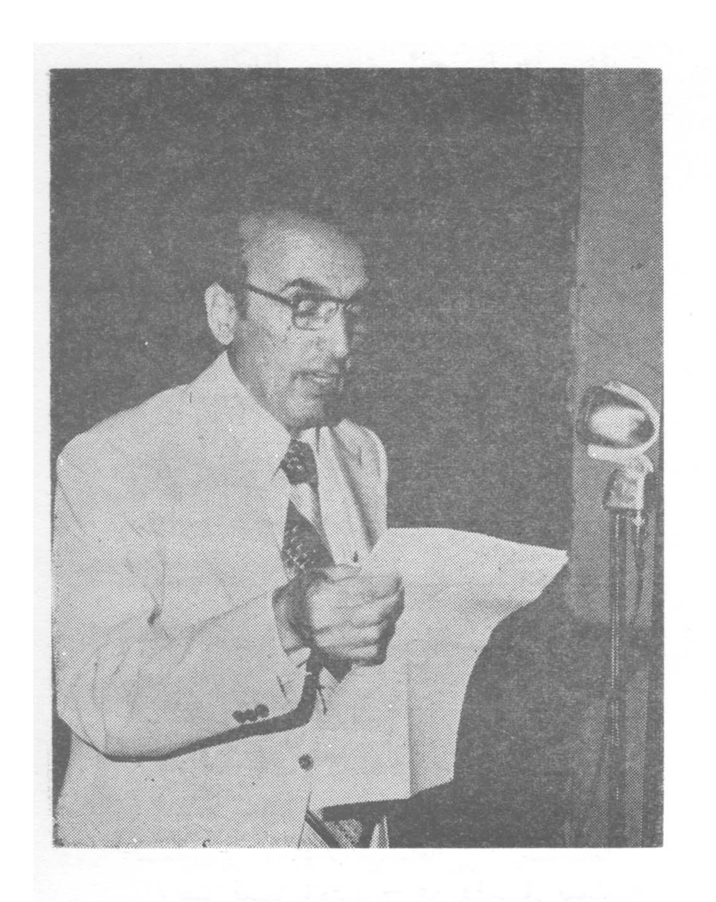
وفي الحقيقة ، تحتاج هذه الاثار الى جمع وعناية ، وتستحق طباعتها في كتاب واحد يبقى مرجعا لطلاب العلم مدى الزمان ، حتى يستمر الانتفاع بالمرحوم احسان بعد وفاته كما استمر في حياته ·

وبعد ، فهذه صورة لابي أنس محب العلم ونصير الثقافة ، أرجو أن تكون قد استوعبت معظم الخطوط واستوفت أهم الجوانب ، صورة رجل مر بنا مرور السحابة الممطرة أخذ من العلم ما وسعه الاخذ ، وأعطى منه ما وسعه العطاء ، وخدم أمته بكل ما يملك انسان من فضائل وامكانات ثم مضى عنا وفي القلوب حسرة وعلى الالسن ثناء ودعاء · فرحمه الله رحمة واسعة ، وبارك في أنجاله وأعقابه وعوض الامة منه الخير وحفظ أمثاله من العلماء والمخلصين ·

عبد الرزاق الاصفر
مدير المركز الثقافي العربي بحماه



جانب من الحضور اثناء حفل التأبين



وداعاً أبا أنس

نذير الحسامي

حنانيك لا سهدا عصرت ولا حزنا
ألم ترتشف من كل طيبة مجنى ؟

قطوف الدوالي في لياليك منهما
اليك من الكأس التي امتلأت أدنى

فمالك لم تنضح بخمرهما هوى ؟
ومالك لم تسفح لشدوهما لحنا ؟

لديك بواكير الجنى من دجاهما
فهل سكنا كأسا وهل نزلا دنا ؟

أضنا بسكر السهد ياليل والاسى
على البوح لارن الحزين ولا أنا ؟

تراك رحمت الجرح كبرا وعفة
فلم ترضنا ان تخبئه ضنا ؟

أتكتم خلف الليل مغناك في الجوى
وفي مهج العواد شوق الى المغنى ؟

وتمنعهم جدوى دواليك من هوى
على الجمر من بلواك يدمى بما جنا ؟

وهذي سلال السامرين ملأتها　　من الرطب المعسول ملء الضحى الاسنى
تهلل للوراد من كل طاعم　　اذا ذاق منها ما يبل الصدى ثنى
أبا أنس لم ترض للعود ان يشي　　بجرحك فاستغنيت عنه بما أغنى
تلففت بالصمت الذي يستحي على　　جراح مدماة نزفن وما هنا
ضنيت فأين الآه من حرق الضنى ؟　　أأشفق ان يهمي بها قلبك المضنى ؟
حنانيك هل شح النسيم برحبه　　فعنى لياليه الذي بالجفا عنى ؟
يحن لطيف من نداه وزورة　　ويسأل عن رياه بالمقلة الوسنى
ويحرق دمع الشكو من صد غادر　　به طالما في كل رابية غنى
فيا لهفتا للقلب ضاق بوده　　نسيم له حن العليل وما حنا
ذبيح بلا نصل شهيقا وزفرة　　يقطعه حز السهاد به وهنا
اذا ذكر الاصباح غنى لذكره　　وودبه جنح الظلام لو استأنى
على مضجع لا تستقر به رؤى　　يسيىء مع الاحسان فيها الهوى الظنا
ويرقص بالآلام في جنب صاحب　　يحاذر ان ينهد في رقصه ركنا
يواري عن السمار دقات حينه　　ويحصي خطا الايام ترمي به الحينا
ويفتر فيه الجرح عن فضل بسمة　　يواسي بها زوجا تهدهده وابنا
أخا الانس والدنيا علالة حالم　　وبرق أمان في دجاها جرت سفنا
ركبت جناحيها ملاوات شاعر　　وجزت لياليها معنى بها يعنى
صحبتك تصفيني ودادك كلما　　على البينات الغر من ظمأ حمنا
فماذا بأيدينا ؟ يداك مع البلى　　هباء •• وهذي قبضتي صفرت غبنا
ضحكنا وأبكتنا المنى في محاقها　　لماذا ضحكنا ؟ بل لماذا لها نحنا ؟
نضجنا عنا قيدا وحين دنا الهوى　　دفنا كروما والطلى يرتجى منا
سكبنا وشمس الافق مسكوبة بنا　　فهل هي عادت للكؤوس وما عدنا
فيا رحمتا للكأس يصدح بالاسى　　اذاق الهوى خوفا وذقناالردى أمنا ؟
ويارحمتا للشاربين نفوسنا　　متى نقصوا فينا وكيف بهم زدنا ؟
أنحن مع الايام في غيهب عم　　فليس بها يسرى وليس بها يمنى ؟
سألنا ضحاها سؤلة بعد سؤلة　　فلم يشفنا خرسا ولم يرونا لسنا
ألا عفو آيات سقينا بسحرها　　حضرت بها قلبا وغبت بها ذهنا

وعفو مجاني الشعر تغلي قطافها   أبا الانس كم طفنا حماها وكم عجنا
شردت مع الدنيا فرد ضلالتي   بأنسك اني طائر ضيع الوكنا
حنان البيان العذب انت نجيه   سموت به لفظا وطبت به معنى
حديثك انفاس الرياحين في الحمى   تهل ندى ان جفت الكأس او مزنا
وخلقك نشر الورد يحلو مع الضحى   اذا ما الدجى بالطهر ضمخه ردنا
فخذ بحديث الشعر والحب والنهى   ودعنا من الدنيا وبهتانها دعنا
ولا تترك الاسمار تيبس بيننا   قصرنا عن الساعات ام قصرت عنا
أأنت بدنيانا العطاء على الهوى   كما كنت امنحن الوفاء كما كنا ؟
أبا أنس ما اقرب الامس ظاعنا   من اليوم••هل في الحي من يسأل الظعنا ؟
تولى (ابو معن) وشيكا ليومه(١)   فاين ؟ وهل في حادثات البلى اينا ؟
مضى الومض من ذاك الشهاب ولم يكن   ولا الموت لو تدري على كأسه أخنى
أفضت بك الاسمار اذ كنت قطبها   وسرت به اذ كان أضحكنا سنا ؟
أسيان طال الليل ام قصر الدجى   وراحت (سليمى) بالهوى أم أتت (لبنى)؟
رويدك بي فيما لغوت اخا الحجى   أفنت باحلامي فزدني بها أفنا
والا فقم للايك في ألق الضحى   نطارحه طيرا ونسأله غصنا
وصب الرؤى من كل راح مزجتها   ورتل لنا من كل قافية وزنا
وصبغ ثرانا بالتلاوين اننا   عبدنا الدنى وشيا وهمنا بها لونا
ألم نعبد الصباغ يصبغنا رؤى   فنغدو الى رؤياه نصبغها فنا ؟
دنانك ملأى بالرحيق نعله   فنصبو الى الحسن الذي لا يرى حسنا
شقيت بما يشقي الاماني ولم تهن   أكنت بما جربته في الشقا أهنا
اذقت اذى النكران في موطن الوفا   ولم توله نكرا ولم تجزه ضغنا
وعشت على خبز العفاف مكرما   تعاف إذا ما فاح في طيبه نتنا
وما زلت قلبا يسكن الحب ساحه   وان زحمته النازلات على السكنى
خلوت الى الاسفار تطلب وصلها   وصلت •• فهل كانت لذي شقوة عدنا ؟!
وملت الى الافكار تشتار شهدها   اكانت على العاني بلسمها احنى ؟
فتنت بها اذ رحت تفتن بالجنى   فيالك مفتونا ويالك مفتنا
أبا أنس فارقت مستعجل الخطا   وعهدك في غير المكارم ان تأنى
تعجلت لم اشهد وداعك ساعة   وان شهقت نفسي لنعي اخي حزنا
تعسف بي دهري يجرب سهمه   بقلبي رميا بالأحبة او طعنا
أأرمي بقلبي فلذة بعد فلذة   وأنى لي الصبر الجميل به انى
أبا أنس في ذمة الحب والعلا   أتحمل مهدودا وفيك الرجا يبنى
كفاؤك أن يسعى الوفاء بموكب   يقلك يامن سار فيك الهوى يمنا
وحسبك ان تمشي الطيوب وذكرها   بركبك لا دمعا تصون ولا جفنا
شأوت الميامين الرجال مروءة   فنم في لياليهم لكل علا خدنا

نذير الحسامي
حماه في ١٩٧٨/٩/٤

(١) الصديق المرحوم اسماعيل العظم وقد توفي اوائل هذا العام .

اضواء على شخصية ابي أنس

سهيل عثمان



كان أبو أنس احسان العظم قادرا على الاستغناء عن أشياء كثيرة الا الصداقة فانها كانت جزءا لا يتجزأ من كيانه ، ولذلك أتيحت لي وبعض الخلصاء فرصة الظفر بصداقته خلال العقد الاخير من حياته أو ما يزيد عنه قليلا ، اذ جفت نفوس قسم من أصدقائه القدامى وانشغل بعضهم بحياته الخاصة والعائلية وارتجل نفر منهم في الارض واخر في السموات . وقد ظفرنا منه بنديم راوية يروي الشعر المؤثر والقول السائر والحكاية المثيرة والحادثة التاريخية الموحية ، كما ظفرنا منه بصديق وفي يتفنن في اكرام اصدقائه ويتعدى اكرامه وبره الجانب المعنوي الى الجانب المادي على ضيق ذات يده ، وأذكر أنه لقينا يوما وهو في قمة الفرح وأخبرنا أنه قد تسلم ثمن داره القديمة التي تقرر هدمها لصالح المشاريع العمرانية ، وقد اعتبر المبلغ الذي قبضه مبلغا كبيرا وراح يتمثل بقول القائل :

ان الكرام اذا ما ايسروا ذكروا
من كان يألفهم في المسكن الخشن

وأعلمنا أننا ـ شئنا أم أبينا ـ أصحاب حق في رحلة على نفقته الخاصة لنا أن نقترح فيها ما نشاء من أسباب النعيم ،وانهمكنا في دراسة الرحلة والتخطيط لها وطالت دراستنا كالاطفال الذين عثر واحد منهم على دينار فأخذوا يتجادلون حول سبل انفاقه واوشك الدينار أن يفلت منهم وهم مازالوا في جدلهم . ولم نكن نشعر بفارق السن بيننا وبينه بل كنا نشعر به على نحو معكوس فهو المبادر الى اقتراح الرحلة والنزهة والسباحة وهو المتحمس دائما للمدارسة والمناقشة وكان في كثير من الاحيان يحتد في المناقشة الا أن الانفعال لم يكن ليخلف أثرا غير ودي في نفسه أو نفوس الاصدقاء فسرعان ماتروق نفسه وتعود اليه طبيعته السمحة وكأن من حاجاته تفريغ الشحنة الانفعالية في وسط عطوف .

وكان ـ مساه الله بالخير ـ سخيا ببضاعته من المعرفة يحب أن يعرض ما قرأ وما اكتشف ، يحب أن يسال فيجيب واذا لم تأت المناسبة التي تحتم الاستماع الى معلوماته خلق

هو المناسبة لذلك ثم يستفيض في الحديث المليء الممتع ويشعر بعد ذلك براحة عجيبة ، وكان مما يرضيه أن يكون محل رضا واعجاب وقد ذكر لي مرة وهو جذل أنه قد شرح لسائحة أجنبية مثقفة اصل بعض الاثار وتطورها فأعجبت به وقالت له ـ ما اسعد زوجتك بك وأنت على هذه الدرجة من المعرفة • واذا كان يندفع الى الافادة بما عنده فانه لم يكن يتحرج من سؤال من يتوقع أن يجد عندهم العلم بجانب من الجوانب وان كانوا اصغر منه • وكان يعجب بكل عظيم من الاشخاص وبكل عظيم أو مستلمح من القول والفعل أيا كان مصدره مع خصه عظماء امته وخدماتها للانسانية باعمق الاعجاب وكان ينتشي اذا ما اكتشف كلمة حضارية أو أداة أو دواء أو كشفا قدمته امته الى التراث البشري •

وكان ـ طابت ذكراه ـ يهوى المعرفة الحية التي تقوم على تتبع الجزئيات التي تشغل الذهن كاصل كلمة أو الة أو بداية مدينة من المدن أو نوع من الاغذية ولم يكن يميل الى تجاوز مرحلة الملاحظة والتنقيب هذه الى مرحلة وضع القوانين أو تعيين الاسباب البعيدة ، وقد ناقشني مرة مؤكدا أن مرحلة تحقيق الحوادث والتأكد منها هي المرحلة الجوهرية في الطريقة التاريخية لانها تقوم على البحث الدؤوب الصبور الموضوعي عن زمان الحادثة ومكانها وشخصياتها ومجراها وأما ما يعقب ذلك من تفسير ومحاولة لاكتشاف معنى الحادثة فهو معرض للاراء الذاتية الممتزجة بالعاطفة والمستمدة من التفكير التأملي الشخصي دون الجهد الواقعي •

وأما في الوجه الاخر من الحياة وهو الجانب العملي فقد كان أبو أنس كسائر العلماء والمتأدبين قليل الحيلة يصرعه الغلام الناشيء في السوق اذا صمم على خداعه وصرعه ، وكان يهم بمشروعات عديدة حسب امكاناته على أمل استجلاب الخير له ولاهله وأهل العلم ، ويعتمد تحقيق مشروعاته على الثقة ولم يكن من يعاملهم جديرين دائما بالثقة المطلقة التي يمنحهم اياها فيخفق حيث ينجح سواه •

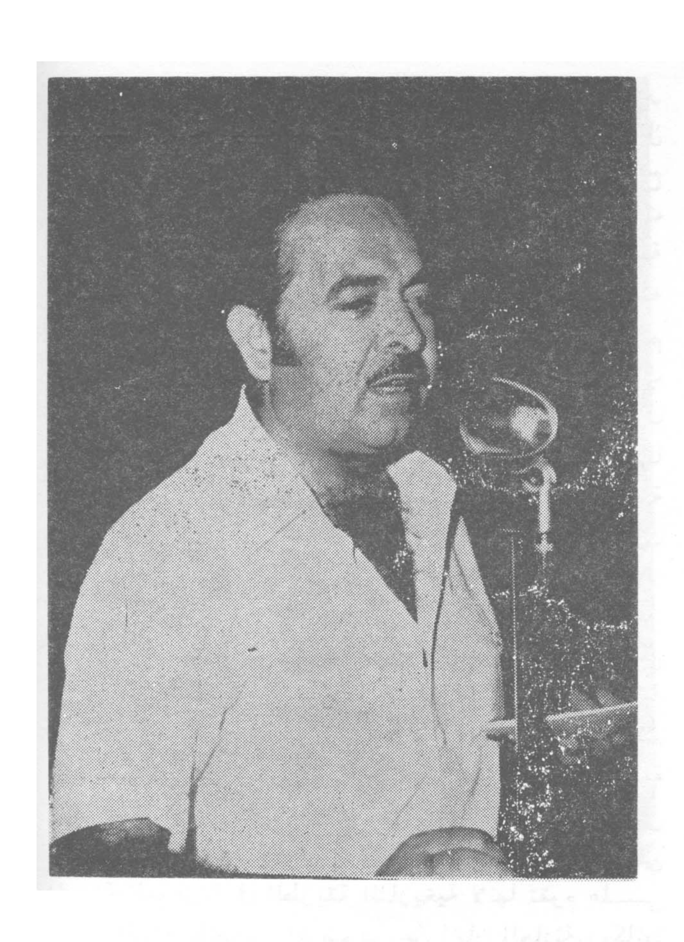
وهو اذا ما أحس الاخلاص من صديق حمد الله كثيرا واعتمد عليه كل الاعتماد وأشركه في جميع شؤونه فالصداقة عنده هي الرابطة الاجتماعية الارادية الاولى يكن اليها ويشعر في أحضانها بالطمأنينة ويفضلها على الهيئات الاجتماعية الواسعة فلم يكن مثلا من رجال الحياة الحزبية • ويتجلى بحثه عن حجر أمين حنون في علاقته مع الكتب فهو حين يثق بمؤلف من المؤلفين منحه ثقة لا حدود لها واعتمد عليه اعتمادا فخورا •

وهذه الملامح وامثالها جعلتني انظر الى صديقي المرحوم كطفل كبير مرهف مثقف ويبدو أن شيئا من التثبيت على موقف الطفل من أبيه قد وقع في سني نشأته • والسبب في ذلك أن والده الذي كان مثله يعتمد في أغلب المعيشة على راتب الوظيفة قد حقق مكانة مرموقة بين عقلاء قومه بعلمه وفضيلته ومرحه وكان يعامل أبناءه معاملة الاصدقاء ويشجع بواكير انتاجهم في الادب والبحث ويدرسهم كتب التراث بنفسه ويصادق من يحبون من أجلهم ولم تعوض الايام فقيدنا عن هذا المثل الاعلى الحي ، وظلت ذكريات الطفولة السعيدة المشعشعة بضياء شخصية الاب تلعب الدور الاكبر في النفس الحساسة التي ظلت خلايا الطفولة الغضة تغذيها كل العمر . ومع هذا التثبيت حدث شيء من التقمص اذا اتخذ احسان دور شخصية الاب وأصبح مبتهجا بأن يحيط به الاصدقاء والمستفيدون والمخلصون ومغتبطا بأن يكون القدوة والمثل •

وقد كان ـ طابت ذكراه ـ يرى أن يستفاد من الموهوب في عصره وأن يقدر المضحي أثناء حياته وقد روى لي كيف تقرر الاستيلاء على منزل مجاهد معروف توسيعا للشارع فأوصى هو اللجنة المكلفة بتقدير ثمن البيت اذ كان على رأس جهاز البلدية بألا تعين الثمن بناء على قيمة المنزل العتيق بل بناء على قيمة ساكنه الذي يستحق أن تقدم له أمته بيتا لائقا بحياة كريمة • ولكن مجتمع أبي أنس لم يحسن الاستفادة منه في حياته اذ ما كان أجدره أن يكون عضوا في هيئة مكلفة بوضع موسوعة أو معجم تاريخي أو تاريخ واسع أو غير ذلك من الاعمال التي ينوء بها الجهد الفردي وحده ، ولكنه يغدو مفيدا أو ضروريا اذا ما تكامل مع سواه • ولكنني أعتقد أن فقيدنا قد أوصى نفسه اذ عاش لهواياته وحشد حقائق الماضي وأماني المستقبل ليستعين بها على هضم اللحظة الحاضرة وازدراد مصاعبها • وقد تالف مع فكرة الموت نفسها فقد شعر في الاشهر الاخيرة بدنو الاجل وراح يذكر ذلك مع شيء من الاستعبار وأبيات من الشعر مناسبة وبالتدريج لم يعد ذكر أجله المحتوم مصحوبا بالكآبة بل اصبح مستعدا لاتخاذه موضوعا للدعابة لو أننا وافقناه •

وليس بدعا أن يوصف أبو انس بالطفولة الدائمة فلطالما وصف بها المفكرون والشعراء والفنانون ويا حبذا لو أن البشرية استبدلت بقسوة المطامع براءة الطفولة ورحمانيتها • وقد ذهب ـ حسن مقره عند ربه ـ راضيا مرضيا وترك لنا أن نحفظ تراثه ونستفيد ونفيد منه • مكننا الله من ذلك ومكن أبناءه من أن يرثوا فضائله ووداعا يا اخر الندماء •

سهيل عثمان



مأتم الفكر

عدنان قيطاز

أين أنداؤه وأين عبيره ؟
وانطوت تلكم الليالي الحوالي
آه .. هل تورق العشيات بالانس
واحاديثه .. اتضحك بالنعمى
وسجاياه ما السلاف اذا دارت
الهدى السمح من اساريره ..
من سناه الرفاف يأتلق الصحو
اسفا صوح الزمان وكانت
وجه احسان .. يا جراحات قلبي
حزنه العبقري في سدة الخلد
فيه من رقة النسيم اعتلال
يتهادى كأنه من جلال العلم
هيبة في وداعة لا مدلا
عف عن ريبة وقد ولغ الجا
ساعة العلم عمره وهناه
ان يوما يمر من غير علم
من هنا مر كالربيع نضيرا
ملء عطفيه يخطر الادب الضافي

جف كرم الهوى وغاض نميره
فمتى الوعد ان يكون حضوره ؟
.. ويزهو ـ غب الوداع ـ سميره ؟
.. وتندى على الجمال سطوره ؟
.. وما الورد ما أجات عطوره ؟
يفتر ، والحق نسجه وحريره
.. ويصفو للشاربين غديره
مذهبات آصاله وبكوره
في دجى الخطب .. كم تبلج نوره
.. وللشعر وحده تصويره
ومن النرجس الغرير فتوره
.. طود محومات نسوره
ان رب الاموال جم غروره
أر فيها ـ مهما اجنت ستوره
حين يشقى بجهله موزوره
كان شؤما عليه .. كان يضيره
لم يخلف الا الشذى منروره
.. وان قل في الورى تحبيره

تلك أصداؤه ترن بسمعي ... وكأني بقربه اذ أزوره
مجلس عامر بكل بديع ... أترى آض موحشا معموره ؟
كم سقانا من البيان أفانين ... •• فمن ذاقها استمر مريره
يخلب العقل بالبديه من الفكر ... •• ويجري ـ محسدا ـ تقديره
ما أراني اقول في يومه الباكي ... •• وما الشعر ؟ ما هداه وزوره ؟
مأتم الفكر في ضمير الحضارات ... •• وفي مقلة الزمان عصوره

● ● ●

قم تكلم يا ايها الشمم الآبي ... •• وخل البهتان تهوي قصوره
حاملا راية الصواب بليل ... أنت فرقانه وأنت زبوره
الفصيح المبين قد يؤثر الصمت ... •• ويأبى الا افتضاحا شعوره
ان حرفا تخطه بيمين ... يتجافى عن الهجوع ضميره
لا تخف صولة على تالد المجد ... •• فان الجبان ساء مصيره
البيان الاصيل يخلد كالشمس ... •• وللريح غثه وحقيره
يا معز التراث دهرا طويلا ... لا ترع •• فالتراث عز نصيره
حشد المبطلون بغيا عليه ... وحشدنا ، لكل طي نشوره
نحن اعلى يدا اذا حصحص الحق ... •• فما المدعي ؟ وما تزويره ؟
قل لماحي الضياء : بؤت بخزي ... ابد الدهر طالعات بدوره
ان يكن غاب وجه احسان عنا ... فلقد شد للمعالي نظيره

● ● ●

ايه احسان عاد شعري حزينا ... بعد فرط الحنين تبكي بحوره
تتشظى حروفه في دمائي ... آه •• كم طال في الضلوع زفيره
يامجير الاديب في الموقف القتال ... •• جار الهموم من ذا يجيره ؟ (١)
خذ عيوني ودع عيون القوافي ... ان شعري صعب علي يسيره
كم تمنيت ان اهزك بالشعر ... •• ومن لي سواك حين اديره ؟
ابك يا شعر ذلك الماجد الفرد ... •• فعندي هباته ونذوره

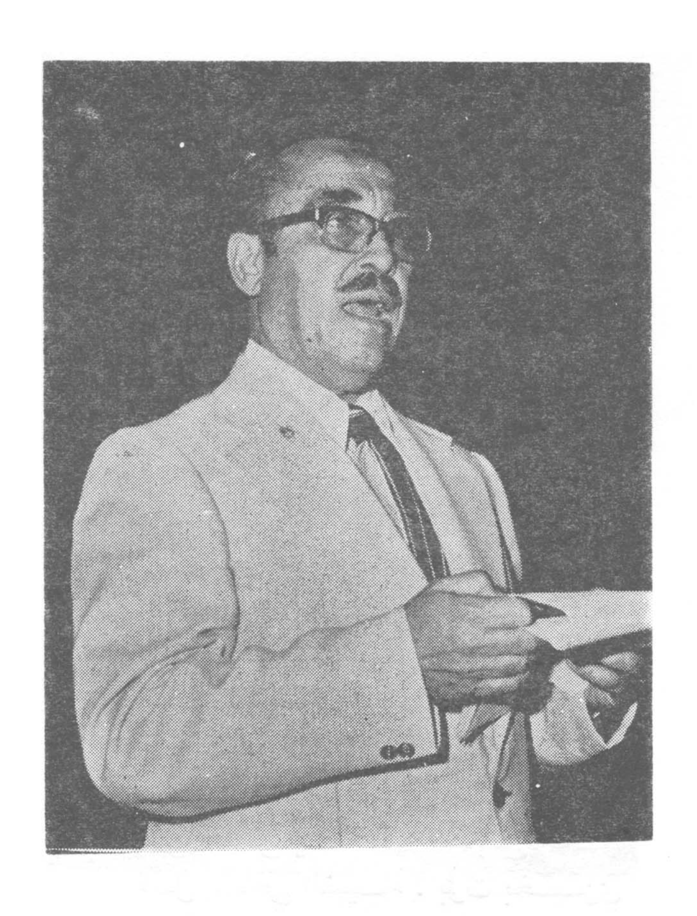
ابك يا شعر صاحب القلم الحر ... •• فذا نظمه ، وذا منثوره
ابك يا شعر روضة العلم والفضل ... •• فان العاصي تنوح طيوره
ونواعيره تساقط دمعا ... ألحزن نعيرها وخريره ؟
لست ادري ؟ مما ارى وأعاني ... كل قلب ما عاش فهو اسيره
ايه يا شعر والمنايا رزايا ... لا يرد المقدار الا قديره

١ ـ اشارة الى موقعه النبيل من الاديب الكبير الاستاذ سامي السراج بعد عودته من مصر .

عدنان قيطاز

كلمة آل الفقيد

هشام العظم



أيها الحفل الكريم .

ان هذه المناسبة الجليلة . التي جمعتنا علي صعيد من التأبين والكريم . قد جللها الوفاء بردائه وسما بها البر الى عليائه . وما عدل بهما شيء من الناس في هذه الحياة .

وما زالت هذه الام الرؤوم ، حماة البارة بابنائها الغنية بتراثها منبع الوفاء ، وكهف لرجاء ، فقد سنت في هذا المضمار سنة ما ان لعمر والله أرى لها مثيلا في سنن العالم . فلم تقتصر في دواعي التكريم على الاموات . بل تجاوزتهم الى الاحياء . فلا أحلى على النفس ، ولا أقر للعين ، من أن يشهد الرجل تكريمه بنفسه . ويشارك فيه بوجدانه وحسه . فاذا مات قرير العين رضي النفس ، فكأنما صحب معه شهودا عدولا . وما دام الاجل محتوما ، والموت محموما ، والايمان وحده كفيل بالترويح والتبديد . فلا تثريب على التوديع ، ولا لوم على التعجيل بالتشييع . فلكل أجل كتاب . ولكل عمل حساب . مهما طال العمر وتقنعت النذر .

أيها الحفل الكريم .

ان ظواهر الاستفتاء تغني عن البحث والاستقصاء فالمركز الثقافي في حماه . مشكورا ومحمودا . كان وراء هذه الاحتفالات. ودليل هذه المبادرات. حتى اصبح فيها مجليا بين اقرانه ، ومصليا امام انداده . فاذا كانت الاعمال باصحابها ، والمؤسسات بالقائمين عليها . فان تقويتها شامل للجميع ، فلهم شكر العلم على الايحاء . وحمد الادب على الاغراء ، وذكر التاريخ على الاحياء . ولو تطاولت منتزعا حق التسجيل والاملاء ، اما اخوان فقيدنا الغالي ، ما بين شاهد للحفل . ومنتدب للقول ، ممن هو في حماة فحضر ، وممن تجشم عناء السفر ، فلا أجد لهم وفاء للحق ، واعترافا بالفضل . اكثر من

أن أزجي لهم جزيل الشكر وعاطر الثناء . فلقد ذكروا وأفاضوا . مما نعلم ومما لا نعلم . ولا غرابة ولا لوم ، فقد نجد رجالا يعرف عنهم اخوانهم اكثر مما يعرف أهلهم . وهذي لعمري اعظم قيمة واكبر منزلة للرجل من العكس . فطالما أباح الرجل لاخوانه ما أخفاه عن أهله . وطالما أسر للاخوان اكثر مما يسر للاهل، وطالما كان التبسط مع الاهل اضيع آثارا وأقل اعتبارا . والرجل باخوانه اكثر مما هو بأهله . وكل في بعض الاحيان كثير .

على أن التفاوت في العموميات لا يقلل من شأن الخصوصيات . فنحن على القرب والقرابة أعرف بخصوصياته ، واعلم بنزعاته . وان جاء بعضها على العموم .

وما دمنا في معرض الحديث عن الفقيد رحمه الله. ذكرا وتنويها . واخلاقا وآثارا فلا بأس علينا من زيارة في الحديث ، وافاضة في الذكر . لتكون روافد النهر الذي أجراه اخوانه . ودلائل الآثار التي وسعهاميدانه.

لقد كان رحمه الله من العفة والنزاهة بمنزلة كبيرة. وكان من المحافظة على الاخلاق والعوارف ماكان له ديدنا . وشغلا شاغلا . فطالما أوصى بها أهله . وطالما نصح بها اخوته . وطالما حث عليها ولده .

وطالما ضرب فيها المثل بنفسه :

عماه هذي بديهيات منطلقي

الى الرثاء . فلم أبلغ ولم أصل

فقد رأيت جميلا أن أكون بها

على القرابة . دون الصائل البطل

كان رحمه الله في اكثر مجالسه متحدثا أديبا . يستملح الطرف فيرويها ، ويستجيد الحكم فيستشهد بها ، ولو تفاوت المقام . لانه كان نزاعا الى الارتفاع بمحدثه اكثر منه ايثارا للنزول الى مستواه .

كان اكثر ما يستأثر به الشعر . فهو وان كان شاعرا مثلا ، الا انه كان راوية مجيدا . وكان اعظم ما يكون للشعر رواية في الشواهد والحكم والامثال، فقلما خانته الذاكرة في الاشتشهاد . وقلما تخلت عنه في الاسترشاد . وكان يعجبه الفنائي من الشعر . الذي يغني النفس وهمومها . والاحداث وخطوبها . والايام وصروفها .

عماه كم كان هذا الخل ثالثنا

وكم سقانا علالات على نهل

وكم شفانا على الاحداث موعظة

وكم روى النفس من مدح ومن غزل

فهل رأيت وفيا غاب عن جلل

كما أرى اليوم اخوانا على الجلل

كان رحمه الله يفتش عن الحكمة حتى عند العوام . فيستطرف لها . ويحدث عنها . وكانت أحب لها اعجابا . ويستمتع بها استطيابا . وكان الى هذا وذاك بارعا في المقارنة بين الحديث والقديم . فمتى نال القول اعجابه سرح بفكره لاستقصاء امثاله مما حفظ ووعى . فكان لا يقر للقديم بكل سبق وفضل ، ولكنه كان يتمنى للحديث لغة أقوى . وفطرة أصفى ، حتى يجيء على شاكلة القديم . وحتى تصح المقارنة . وتستقيم المعادلة ، فكان مذهبه في ذلك مذهب ابي تمام في الشعر حيث يقول :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت

حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنــه فيض العقــول اذا انجلـت

سحائب منـــه اعقبت بسحـائب

وكان رحمه الله على كثـرة روايتـه ، وفيض احاديثه ، حسن الاستماع قوي الانتباه شديدالملاحظة على الهفوات . سريع الانتقاد على السقطات . فكانت ثقافته أخلاقا . ومنهجه فيها أوسع آفاقا . فلــم تكن له شخصية حافظة راوية . وشخصية في المعاناة مخالفة . فكان يراود نفسه دائما على التمتعبشخصية واحدة في المعرفة والمعاناة . فكان يعتبر العلم مهذبـا للطبائع . والثقافة معززة للاخلاق . ولا جدال في ذلك عنده . فكان اكثر ما يكره الاستهانة بالاخلاق والتهلهل بالتمسك . وكان اكثر ما يكون امتعاضا وبرما بالسامع اذا كان عطن المروءات قليل المبالاة . وبالمحدث اذا كان ضعيف الاستيعاب طائش الجواب . فكان يقال عنـه بأنه يعيش لوحده . ويكتفي برفـده . والحقيقـة في التفاوت .

وكان مع ذلك في بعض الاحيـان علـى تقبض . فكنت تراه مع بعض العوامضاحكا وممازحا ومداعبا . لان خفة الظل وحلاوة الروح وحسن الفهم وفطـرة الذكاء ، صفات كانت تحل عنده في المتطلباتالاجتماعية ما تحل عنده المتطلبات الثقافيـــة في بعض الاحيان . فكان رحمه الله مع من يستظرف ويستلطف اكثـر انغماسا في الحديث ، وطلبا للاستزادة من الروايـات والنكات ولو كانت لولا حسن الاداء من الترهات .

كان اكثر ما يرتـاح في مجالسه الـــى العلمـاء والفضلاء . فكان يتغذى بالحديث العلمي وبالخلــق الروحي . فكان يشيد ويغرق في الاشادة بما سـمع وبما رأى . فلم تكن فيهعادةالانطواء والاكتفاء . بل كان متعلما ومعلما . وكان اكثر ما يعجبه من العالم أفكـاره ونظرياته . ومن الاديب طرقه ورواياته فيحصي لهمـا المؤلفات ويكثر عنهما الاحاديث والـروايات . حتـى يشجع السامع وينبه الغافل . فطالما قال : حدثنـي فلان . وروى لي فلان . فاذا خانته الذاكرة مرة الح عليها ضربا باصبعيه واغماضا في عينيه حتى تستجيب له . لم يكن فقيدنا رحمه الله على كثرة انشغاله بالعلم والادب والتحقيق والتاريخ بمعزل عــن السياسة . فقد كان كثير الاهتمام والاستماع . دقيق التحليل . يمعن في ربط الاخبار وتقاطعها وتوقع النتائج . وكان حتى في السياسة خلقيا . فـلا يـرى فيهـا مبـررا للانحراف . ولا موجبـا للتهلهل . وان كـان يعتقـد بالانصراف لها على حساب سائر المرافق والمشاغل .

كان رحمه الله أوصلنا رحما . واكثرنا زيـارة للاهل والاقارب ، وكان جامعا للشمل محبا للجميع ، ينفق عن سخاء ويسبق في اقامة الولائم ليرى العائلـة باجمعها مجتمعة عنده . فاذا رآها أفاض على كــل فرد منها الكثير من دعاباته ومزاحه وملاطفته .

وكان اكثر ما يكون سرورا عندما يرها علـــى مائدة الطعام تأكل وتشرب . اما هو وفي ايامه الاخيرة فقد كان ملتزما بحميته ، مجليا باريحيته . فكـان صابرا محتسبا . وكثيرا ما كان ينعي الينـا نفسـه وقرب أجلـه .

وليعذرني الاخوان اذا أفضت ذكرا في الحيـاة الخاصة . فهي مكملة للعامة وطالما حدث رحمه اللـه عن الرجالات في العام والخاص . على انهـا دلائــل وشواهد على النماذج الطيبة من الرجال . وعلــى أنها الوحدة الاخلاقية المتماسكة في جميـع ما يصـدر عنهم من تصرفات .

كان رحمه الله دائم التفكـير . فكـان في شغل شاغل حتى في أوقات فراغه . فكان اذا انفرد أمعن تفكيرا ومعالجة لما الم به من خواطر ومشاكل . فكنت تلحظ عليه وكأنها طوع يديه . فلـم أره مرة هائمـا على وجهه مسترسلا في غيبوبته . الا اذا أخذته سـنة النوم وهو على سريره . فكان في اليقظة دائم التمالك شديد التماسك .

عماه والذكريات الغر ترمقني
فما أجدت على الاغراء من أملي

فنازل الموت فيما حز من اسف
على الفراق أقام السد في سبلي

عماه لولا تراث المرء من أدب
ومن سخاء ومن قول ومن عمل

ومن مجيد على التاريخ يذكره
ما استمطر الناس رحمات على الرجل

عماه هذي بديهيات منطلقي
الى الرثاء . فلم ابلغ ولم اصل .

فقد رأيت جميلا أن أكون بها
على القرابة ، دون الصائل البطل

اذا كفتك مؤونات العلى غرر
من الحياة ، ومن ذكر ومن حلل

ومن دواع من التأبين خف لها
ما بين منتدب فيها ومحتفل

فقد تعزى وفاء كل ذي حزن
وفي الوفاء عزاء الفاقد الثكل

ايها الحفل الكريم : نحن لا ندعي شططا بأننا أوجع ألما وافدح مصابا باحسان رحمه الله من الاصحاب والاخوان . ولكننا أصبحنا أجمل عزاء واكثر سلوانا بما شاهدنا وبما سمعنا . فنحن مع تسليمنا بحكم الله وأمره ، رأينا انه لا يعيش على العزاء اكثر من الوفاء ، ولا يساعد على السلوان اكثر من الاخوان ، فهذا دور المروءات . بل هذه هي المروءات .

وانت يا حماة الخير . ويا موئل الاحرار . ويا موطن الوفاء والمروءات . لقد طال الغياب وقل الاياب فلا زيارة الا لحضور المآتم وتشييع الكرائم ، وأصبحنا على البعاد والفراق اكثر احصاء ومعرفة بالاموات من الاحياء . ولكننا اذا رجعنا الى الديار لا نقف الا على صعيد طهر وذكريات غر . فان لم نكن في الحي من النزلاء فنحن في السعي من السفراء . ولكل دوره في الحياة ، وما خلف الراحل والمقيم أجمل من الذكريات وأطيب من الاحدوثات . أما اذا تقطعت الاسباب على الغياب . فلا أجدر بالغائب اذا حضر من ان يقف على العاصي ويستفتيه ويحتكم اليه :

اذا وقفت على العاصي اسائله
عن الديار . وعما دال من دول

أشار والدمع يهمي من دوائره
الى الديار . فلم أعثر على طلل

حماة يا موئل الاحرار من بلد
فلا تضني على الغياب بالنزل

أقول عتباك والمحزون منكفىء ،،
جرح تنزى . وأصداء على وجل

اذا قسوت عليهم في حياتهم
يا مسقط الرأس . كوني مسقط الاجل

أيها الحفل الكريم :

انني باسم آل العظم وبيت الفقيد اتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان . لمن أقام الحفل ولمن شاهده وساهم فيه ، ولمن سعى اليه متجشما عناء السفر . واخص بالشكر اولئك الاخوان والاصدقاء من شعراء وخطباء وعرفاء . وأعود قاصدا لاخص المركز الثقافي ومديره الاستاذ عبد الرزاق الاصفر بجزيل الشكر وعاطر الثناء .

راجيا للجميع عيشا سعيدا وعمرا مديدا . واجماعا على الوفاء والمروءات . ففيهما يتعايش الناس . وفيهما تتباين الطبائع وعليهما تستقر الاخلاق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رسائل و برقيات

الـــى
المركز الثقافي العربي بحماه

وزارة الثقافة والارشاد القومي تشاركم الحفـــل التأبيني الذي تقيمونه اليوم لفقيد الثقافة والادب المرحوم احسان العظم • فقد كان رحمه الله أحد كبار رجال الادب الذين أحسنوا تقدير التراث العربي مثلما أجادوا في تعريف أبنـــاء هذا العصر به ، وكان الى دماثـــة خلقه وتواضعه العلمي دؤوبا في نشر المعرفة الصحيحة والدفاع عـن الادب العربي وكل ما أبدعته الحضارة العربية •

تغمد الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان •

وزيرة الثقافة والارشاد القومي

الدكتورة نجاح عطار

الى المركز الثقافي العربي بحماه

قبل أربعين سنة التقيت بالمرحوم احسان العظم لاول مرة ومنذ ذاك التاريخ وحتى يوم وفاته بقيت مرتبطا به تجمعنا صداقة عاطفية وحرص مشترك عـــلى نشر التراث العربي وتعريف الناشئة به ووصل ماضي الفكر العربي بحاضره كان بالنسبة الى ابناء جيله طاقة عطاء وخيرتقدم أفضل ما عندها للناس دون أن تطلب منّة وجزاء ستظـــل ذكرى أخينا احسان العظم حية في عقولنا وقلوبنا • رحمه الله رحمة واسعة وألهم أبناءنا والاجيال الناشئـــة أن تواصل طريق الخير والمحبة التي سلكها الفقيد في هــــذه الحياة الدنيا •

معاون وزيرة الثقافـــة

محمد أديب اللجمي

أخي أبا أنس

لا أملك في تأبينك الا عبرات ترق ولا ترقأ ، وتهد ولا تهدأ ، ولئن طواك الردى طي الرداء، فلقد نشرتك ألوية الثناء ، انت يا من كنت مثالا في خلقك ، مثالا في علمـــك ومروءتك •

وكنا نتمنى أنه لو امتد بك الاجل ، فلا نحرم مـــن خلقك العذب ، واخائك الرحب ، ولكن الامور تأتي علـى غير المراد ، والموت نقاد يختار من الجواهر الجياد :

ابدا تسترد ما تهب الدنيا
فياليت جـودها كـان نجـلا
فكفت كون فرحة تورث الغم
وضـل يغـادر الوجـد خـلا

عمـر يحيـى

لسيادة رئيس المركز الثقافي العربي في حماه المحترم

تحية عربية طيبة

تسلمت في صباح هذا اليوم بطاقة دعوتكم للحفل التأبيني الذي تقيمونه احياء لذكرى فقيد العلم والثقافة المغفور له احسان العظم فشكرت لكم اجزل الشكـر اهتمامكم بالاشادة بفضل ارباب الفكر والنبوغ، وقدرت فيكم وفي الاساتذة الخطباء والشعراء ، ما تبذلونه من جهد ادبي مبرور ، في سبيل تكريم العاملين المخلصين لوطنهم وللغتهم وتراثهم المجيد ..

انني انحني بخشوع ، في محراب ذكرى ذلـــك الراحل الغالي ، الذي ستظل ذكراه خالدة معطرة الى الابد ، وارجو ان اشير الى حفل التأبين في العـــدد القادم من مجلة ــ الضاد ــ . ولو لا ارتباطي بموعد سابق لا سبيل الى ارجائه ، لهرعت للمشاركة في الحفل المهيب الذي امل ان يتلاءم ومكانة الفقيد العزيز .

وتفضلوا بقبول الاحترام .

صاحب مجلة الضاد ورئيس تحريرها

عبد اللـه يوركي حـلاق

تحية الى حماه ... من مصياف

استن ادباء حماه سنة جديدة ، يجدر اتباعها ، فما ونوا يقيمون حفلات التكريم لاعلامهم ، رجال العلم والثقافة والادب ـ الاحياء منهم والاموات ـ حتى باتوا مضرب المثل في الوفاء للذين نهلوا من غدق معينهم ما نهلوا ، فجاءت كتاباتهم واشعارهم ، بمستوى لائق من الجودة والاصالة ، في الشكل والمضمون .

ولا اذهب بعيدا ، فبالامس القريب اقاموا حفلتي تكريم للشاعر الطبيب وجيه البارودي ، وللمربي الكبير عمر يحيى . فلم ار اجمل من وقفتهما ، يردان التحية للخطباء والمحتفلين ، وعيونهما تقطر بدموع الفرع .. انهما استوفيا حقهما من الحياة ، فلا خوف عليهما ، وهنيئا لهما بما صنعا .

من سخريات القدر ـ وتقدرون فتضحك الاقدار انهم كانوا يستعدون لاقامة حفلة مشابهة للمؤرخ البحاثة احسان العظم ، لو لا ان عاجلته المنية ، فلم تكتحل عيناه بمثل ما اكتحلت به اعين السابقين : تلاميذ يرتلون سور الوفاء نثرا كأنهالدر وشعرا كانه السلافه. ولذلك اقاموا هالة في ـ ذكرى الاربعين ـ ، وفي قلوبهم حسرات وفي عيونهم دموع .

خير عزاء ان هشاما العظم قد تقمص شخص عمه الراحل : ففي كلمة الشكر لال الفقيد ، مرج الشعر والنثر ايات ، هي ذوب عاطفته لعمه والمواطنين وهي الارومة العريقة التي تعطر الجو بالشذا .. فلقد بكى واستبكى ، وحق له ان يبكي ويستبكي . ولكم سجع سجعا جميلا ، حين عبر ابلغ تعبير ، عن حنينه الى حماه ، مدينة النواعير ، فماله من امنية ـ وقد اضطرته الظروف الماحقة الى ان يكون بعيدا عنها ـ سوى ان يدفن فيها . وقد خرج الحاضرون وهم يرددون الشطر الثاني من بيته :

...... يا مسقط الرأس كوني مسقط الاجل

اسبغ الله على الفقيد فيض رحمته ، بقدر ماله من اياد بيض على الثقافة والمعرفة . وتحية لك يا مدينة ابي الفداء من مصياف ـ الحي الغربي لحماه ـ لان فيك من يقدرون الفضل ، و ـ الفضل لا يعرفه الا ذووه ـ !! ..

مصياف **مصطفى الخش**

مديرية المركز الثقافي ـ حماه

اخلص التعازي بالمرحوم الاستاذ احسان العظم وانه لنموذج كريم من الرجال خسرته الثقافة ، الصبر والسلوان لال الفقيد ومحبيه والشكر والتقدير لابناء حماه الاوفياء .

الدكتور عمر الدقاق
عميد كلية الاداب بحلب ورئيس فرع اتحاد الكتاب بحلب

المركز الثقافي ـ حماه

المعذرة لعدم تمكني من حضور حفل تأبين استاذنا الكبير المرحوماحسان العظم بسبب سفري الىايطاليا.

ياسر الفرا رئيس تحرير جريدة البعث

بطـاقة شـكر

نتقدم بجزيل الشكر للسادة الادباء والشعراء ورجال الاعلام الذين وفدوا مدينتنا للمشاركة بتأبين فقيدنا المرحوم احسان العظم ونخص بالذكر الاستاذ عبد العزيز الربيعي من ادباء المملكة العربية السعودية والاستاذ سعد صائب والاستاذ مدحة عكاش ، صاحب مجلة الثقافة والاستاذ مصطفى الخشمن ادباء مصياف والاستاذين ياسين الفرجاني وغازي التدمري من حمص ونشكر جميع الاساتذة الادباء والشعراء الذين شاركونا ..

لجنة التكريم ..

ابو الاسود الدؤلي

شاعراً

جودت صالح

روى ابو الفرج الاصبهاني في اغانيـــه : ـ ان المنصور لما مات ابنه جعفر وانصرف الى قصره بعـــد دفنه قال للربيع وزيره : انظر في اهلي ينشدني : امن المنون وريبها تتوجع . حتى اتسلى بها عن مصيبتي . فطلب الربيع ذلك في بني هاشم، فلم يجد من يستطيعه فقال المنصور : واللـه لمصيبتي بأهل بيتي الا يكـون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الادب أعظـــم واشد علي من مصيبتي بابني ـ (١) الاغاني ٦١/٦ . نقلا عن كتاب المعارف لابن قتيبة تحقيق : د . ثروة عكاشة . بهذه الروح الادبية المتوثبة ، وبهذه النظرة المتميزة كان العرب الاول مع الشعر . فالشعر ديوانهم به سجل حياتهم واخبارهم ووقائعهم . فهم كانوا اشد الاقوام احتفاء بنبوع شاعر بينهم ، ويكفي ان تعلـــم ان القبائل العربية لم تكن تهنىء بعضها الا بغلام يولد ، او بفرس تنتج ، او بشاعر ينبغ . . ومن يقلب صفحات تاريخ العرب في الجاهلية سيعثر على كثرة شعرهم وشعرائهم حتى انه ليقول ـ دون مغبة او حرج ـ ان العرب كلهم اجمعين كانوا شعراء . فالذي لا يقول الشعر منهم كان يرويه . ـ ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير . ـ (٢) ابو عمرو بن العلاء .

اسمه ولقبه وولادته :

هو ظالم بن عمرو بن سفيان من بني كنانه ، ولعل لقبه الذي لقب به قد جاءه من سواد كان به . يقول ابن شعير يهجو احد النجاة : (٣) . انباه الرواة للقفطي جـ ٢ ص ٥٣

لو تلففت في كســاء الكسائي
وتفريت فـــروة الفـــراء
وتخللت بالخليــل واضحــى
سيبويــه لديـك عبد سبـــاء
وتلبست من سواد ابي الاسود
ثـــوبا يكنى ابـا الســوداء

لابى اللــه ان يــراك ذوو
الالباب الا في صورة الاغبيــاء

ولد ابو الاسود في الجاهلية وتوفي سنة ٦٩ هـ . يقول ابن خلكان : – توفي ابو الاسود في البصرة سنة ٦٩ هـ في طاعون الجارف وعمره خمس وثمانون سنة– (٤) وفيات الاعيان ص ٢١٨ . وهو من اسرة عريقــة تتصل بالنسب النبوي الشريف . ولي قضاء البصرة في ولاية عبد اللــه ابن عباس . لزم عليا في بقية حياته، ودخل في طاعة معاوية بعد وفاته . كان يتشيع لال البيت . وكان تقيا صالحا :

واذا طلبت من الحوائج حاجة
فادع الاله واحســن الاعمــالا

فليعطينك ما اراد بقــدرة
فهو اللطيف لما اراد فعــالا

ودع العباد ولا تكن بطلابهم
لهجا تضعضع للعبــاد سؤالا

ان العباد وشانهم وأمورهم
بيد الاله يقلب الاحــوالا

وقد نبزه احدهم بالبخل والشح .

الدؤلي شاعر الحكمة :

الحكمة اسم جميل لمعان اجمل ، فهي تســير بصاحبها نحو الطريق الاقوم والمنهاج الاصــوب . والحكمة ضالة المؤمن اينما وجدها التقطها .

وحكمة ابي الاسود ذات طابع اسلامي، فهي مستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ومن التأثــر بأقوال الامام علي بن ابي طالب حبيب الشاعر ، وقرة عينه .

ان الحياة المديدةالتي عاشها شاعرنا خليقة بان تجعله حكيما ينطق بالصواب وبالحق :

تعودت مس الضر حتى الفته
واسلمني طول البلاء الى الصبر

ووسع صدري للاذى كثرة الاذي
وكان قديما قد يضيق به صدري

اذا انا لم اقبل من الدهر كلما
الاقيه منه طال عتبي على الدهــر

لقد تعود الضراء ، وصابر الصبر ، ووســع الاذى صدره . ولكن ايعتب رجل كأبي الاسود علــى الدهر ؟ انه يعرف تقلبات الايام ونكباتها ، ولذلك نراه يغض الطرف ويمشي في سيره الطويل .

وليست حكمة ابي الاسود مستمدة من الرجم بالغيب واستلهام المجهول . بل انها حكمة مبنية علــى الايمان ، حكمة شعارها التوكل والسعي ، ودثارهــا التقوى والدعاء الى اللــه :

واذا طلبت من الحوائج حاجــة
فادع الاله واحسن الاعمــالا

وما طلب المعيشــة بالتمنــي
ولكن الــق دلوك في الدلاء

تجئــك بملئها يومــا ويوما
تجئك بحماة وقليل مــاء

ولعل قصيدته الحكيمة التعليمية هي خير مــا وصلنا من شعر الحكمة :

يا ايها الرجل المعلم غــيره
هلا لنفسك كان ذا التعليــم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيهـا
فاذا انتهت عنه فأنت حكيـم

لا تنه عن خلـق وتأتي مثلـه
عـار عليك اذا فعلت عظيـم

فاترك محاورة السفيه فانها
ندم وغب بعـد ذاك وخيـم

واذا جريت مع السفيه كما جرى
فكلاكما في جريه مذمـوم

واذا عتبت على السفيه ولمته
في مثل ما تأتـي فأنت ظلـوم

واذا طلبت الى لئيم حاجـة
فلقاؤه يكفيـك والتسليـم

فارج الكريم ، وان رأيت جفاءه
فالعتب منه والكريم كريـم

الدؤلي شاعر آل البيت :

الحقيقة ان الاسلام خفف من غلواء الشعر ، ومن كذبه ، فمنذ ان انزلت الاية الكريمة : ـ والشعـراء يتبعهم الغاوون ، الم ترانهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، الا الذين آمنو .. ـ (٥) الشعراء. كانت الحد الفاصل بين شعراء الجاهلية الذيـن يهيمون في كل واد ، وبين شعراء الدعوة الاسلامية الذين صدقوا ما عاهدوا اللـه عليه ، وكان منهم شاعرنا ابو الاسود . ان شعر المديح الذي سبق الاسلام ، كـان مدحا للخمر ولدنانه او مدحا كاذبا مبالغا فيه للممدوح بالقوة والشجاعة . اما الان فقـد اختلفت النظرة ، واختلف الهدف . ان ابا الاسود يشيد بعقيدة الممدوح وبأخلاقه ، وبجهاده في سبيل نشر راية الاسلام :

يقـول الارذلون بنو قشـير
طوال الدهر لا تنسى عليـا

فقلت لهم وكيف يكـون تركـي
من الاعمال ما يقضـي عليـا

احب محمدا حبـا شديـدا
وعباسـا وحمـزة والوصـيا

وجعفر ان جعفر خير سـبط
شهيدا في الجنان مهاجريـا

بنو عم النبي وأقربـوه
احب الناس كلهم اليـا

انه مديح من نوع اخر ، يدخل بـه ابو الاسود الدؤلي باب ريادة مديح ال البيت من مصراعيه .

الرثاء والفخر عند الدؤلي :

لم يرث ابو الاسود احدا سوى ال البيت . وفي رثائه لهم نجد الصدق والحب العميق ، ويجمع بـين التخليد والبكاء . ولعله اول من فتح باب البكاء واسعا في رثائه لمن بعده . ولعل مقتل أئمة ال البيت قد جعل الشعراء يذرفون الدموع الغزار على أئمتهم ، وقـد وفر لهم مادة لانفاذ لها من الصدق ورثاء الاماجد . وكان طابع البكاء والحزن هو ميسم شعرهم :

ولعل اروع ما قاله ابو الاسود في رثاء ال البيت هذه القصيدة الرائية :

يا ناعي الدين الذي ينعى التقى
قم وانعه والبيت ذا الاستار

ابني علي ال بيت محمـــد
بالطف تقتلهم جفاة نــزار

سبحان ذي العرش العلي مكانه
انـــى يكابــــره ذوو الاوزار

وكذلك يقول في رثاء الامام الحسين :

أفي شهــر الصيام فجعتمونا
بخـير النــاس طـرا اجمعينا

قتلتم خير من ركب المطايــا
وخيســـها ومن ركب السفنيــا

اما فخر ابي الاسود ، فهو فخر بنفسه ، بكرمه ، بطهارته ، ببعده عن الغدر والخنا ، بحلمه :

الست تراني والتكرم شيمتي
وكل امرىء جار على ما تعودا

اطهر اثوابي عن الغدر والخنا
وانحو الى ما كان خيرا وامجدا

واني لذو حلم كثير وانني
مرارا لاشفي داء من كان اصيدا

اجود على المولى اذ ذل حلمه
بحلمي وكان العود ابقى واحمدا

وليس ابو الاسود امعة في الرجال ، اذا قالوا قال واذا صمتوا صمت . فهو بأصغريه يقود نفسه نحو الافضل والاحسن :

ولست بامعة في الرجـــال
اسائل هــذا وذا ما الخبر

ولكنني مذرب الاصغرين
ابين مع ما مضى ما غبــر

وقد استفاد من معاني وشعر أبي الاسود كثير من الشعراء ، نخص منهم :

جريرا في قوله :

الستم خير من ركب المطايا
واندى العالمين بطـون راح

فقد اخذ الشطر الاول من بيت ابي الاسود :

قتلتم خير من ركب المطايا ..

والمتنبي في قوله :

لكل امرىء من دهره ما تعودا
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

اخذه من قول ابي الاسود :

وكل امرىء جار على ما تعودا ...

واحمد شوقي موفي قوله :

وما نيل المطالب بالتمنـــي
ولكن تؤخــذ الدنيا غلابـــا

انه نفس معنى بيت ابي الاسود :

وما طلب المعيشة بالتمني
ولكن الق دلوك في الـدلاء

ولابي الاسود ديوان شعر حققه الاستاذ عبـــد الكريم الدجيلي .

وكذلك قام الشيخ محمد حسن ال ياسين بتحقيق اخر لديوان ابي الاسود الدؤلي .

دير الزور ــ جودت صالح

الوجه الآخر للحزن

رضا رجب

هارب ايها الزمان الى الحب   فطر بي عن اعين الاقدار
لا تثر موجك العنيف بدربي ،   كن امانا وراء هذي الجواري

أنا طلع الربيع .. زقزقة الطير   اصيلا .. ونقرة الاوتار
كل هذي الاشجار يأكلها الجدب   وتبقى مزهوة اشجاري

هازئا بالظلام طرت لعينيك   وكفي يلم قمح النهار
أحمل الخصب للحقول فدربي   ضوع ورد ، وملتقى ازهار

نقشت شعري الجميل على الصخر ،   فشعري تعلة الاسفار
أنا والبحر توأمان كلانا   مترف بالغموض والاسرار

ما لهذي الامواج تصعد في الافق   وتعلوا ، كأنها أفكاري
وأنا .. الليل صاحبي ، وعلى دربي   تميس النجوم ميس العذاري

عتق الله في دناني حمياة ،   وغص الندي بالسمار
لست بالشاعر المحلق ان لم   اجعل الخصب ، حلم هذي الصحاري

• • •

أيها الليل . لا تسل عن جراحي   تسأل الروض عن شذا الازهار ؟
أيها الليل .. لا تسل عن همومي   تسأل الشط عن كنوز البحار ؟

عب ما شئت من مواجعها الضوء   ولملم ما شئت من اقمار
ضحك الشامتون : فليسألوا النار   فاني اضرمتها باختياري

أنا اطعمت للهيب شبابي   لارى حسن حنتي في النار
كلما قلت للنجوم : استحمي   بدموعي ، تهدلت كالثمار

• • •

لا تكون الثمار صالحة الطعم ،   وكانت عقيمة في البذار .

رضا رجب

حوار بين فأر و فيلسوف

احمد عوض النشاش

وضع الفيلسوف كتابه جانبا بعد ان انهكتــــه القراءة .. وكان النعاس قد بلغ مبلغه به ، فتمدد على سريره الخشبي وما لبث ان استسلم لنوم عميق .. كل شيء كان هادئا في تلك الحجرة الصغيرة التي تقبع في احد ازقة القرية .. الا ان احد الفئران المختبئة في أحد جحور ذلك البيت رفض استمرار الهدوء فخرج مــن جحره بحثا عن شيء يقيم به صلبه ..

اعتاد الفيلسوف ان يضع كتبه في المكتبة الخشبية التي يملكها ، لعلمه بمدى فتك الفئران بما تقع يداها عليه .. ولكنه لا يدري كيف نسي الكتاب على الطاولة في تلك الليلة .. وهاهو الحذر الذي يحرص عليــــه الفيلسوف قد ذهب الان .. وكانت فرصة مواتيــــة للفأر الذي ما ان شاهد الكتاب ملقى على الطاولة حتى اندفع نحوه بسرعة .. واخذ يمني نفسه بعشاء لذيذ في هذه الليلة ...

تسلق الفأر الى الطاولة .. ونظر الى الكتــاب بتمعن .. والقى نظرة ثانية على الفيلسوف الذي علا صوت شخيره .. فاطمأن الفأر الى الوضع .. وبدأ بقرض صفحات الكتاب .. ودفع الفضول بالفأر الى تصفح صفحات الكتاب وقرض ما يمكن منها .. واتاح له نوم الفيلسوف العميق الاستمرار في القرض حتــى أتى على اغلب الكتاب .. ولم يكف الفأر عن القرض الا حين تحرك الفيلسوف في سريره لينقلب على الناحية الثانية . عندها ترك الفأر الطاولة مسرعا واتجه الى جحره ..

نهض الفيلسوف من نومه في الصباح وفرك عينيه وفوجيء بالواقع الاليم الذي حاق بالكتاب .. وكاد لا يصدق عينيه .. حدق جيدا .. ولكن الواقع المؤلم ظل ماثلا امامه .. وبدأ يضرب كفا بكف ... وهو حائر ماذا يفعل . ان هذا الكتاب رافقه منذ زمن بعيد .. ويحرص عليه حرصه على نفسه .. ويحتوي على أهم مبادىء الفلسفة .. ولا بد لكل من يريد ان يكـون

فيلسوفا ان يقرأه .. ولكن ما العمل الان .. فالكتاب قرض اغلبه الفأر .. ومن غير الممكن القراءة فيه الان . وبدأ بتوجيه اللوم الى نفسه اذ كيف يزول حرصه هكذا مرة واحدة .. وعلى هذا الكتاب بالـــذات .. وتمنى لو ان العملية حدثت لكتاب اخر .. ولكن ما فائدة الاماني الان .. قرر الفيلسوف ان يشن حربا ضد الفئران .. ولكن ما ذنب كل الفئـــران .. اذن فليتربص للفأر الذي احدث الفعلة بالكتاب اذ لا بد ان يعود .. وعندها سيصفي حسابه معه ..

وفي جحر مظلم من احد جحور البيت ، كان ذلك الفأر يعاني من الالام التي احدثتها عملية تلك الليلة .. اذ ان رأس الفأر بدأ بالتضخم واصيب بعسر هضـم لم يعرف له سببا .. ولكنه عزاه الى ذلك العشـاء الفلسفي الذي تناوله تلك الليلة ..

كانت محتويات ذلك الكتاب مادة فلسفية محضة احدثت تأثيرا كبيرا على الفأر .. واحس الفـــأر ان مشاعره بدأت بالتغير .. وبدأت تدور في ذهنـــه تساؤلات كثيرة .. وهو الان لا بد ان يناقش ويناظر في كل شيء .. ويبحث عن العلة في كل موضوع .. ويشك في كل ما امامه حتى يصل الى اليقين .

خرج الفأر من جحره بعد ان لبث اياما لا يغادره .. وهو يتوقع مقابلة الفيلسوف وان كان يتحســـب لتلك المواجهة .. وبدأ الفأر بالبحث ، ولكن لم البحث فهو قد حفظ زوايا البيت غيبا ، فليس فيها اي شيء .. ولولا نسيان الفيلسوف لذلك الكتاب لاستمر جوعه الى عدة ايام .. وبينما كان ينظر هنا وهناك انتبـــه الفيلسوف لصوت خروشة الفأر فهب واقفا واحضر لوحا من الخشب اعده للقضاء على الفأر بعد اعتداء الاثم على الكتاب ..

امسك الفيلسوف باللوح الخشبي ، وبدأ ينظر يمينا ويســارا لعله يرى الفأر واذا بصوت هـــادىء ينادي الفيلسوف :

ـ ايها الفيلسوف .. دع عنك هذا .. فلا داعي لقتلـي ؟

استغرب الفيلسوف ، اذ انه يعلم يقينا ان البيت ليس فيه احد غيره ، وهو يرفض فكرة وجود جان يتحدثون مع الناس ، اذن فمن الذي يحدثه .. نظر وحدق فاذا بفأر صغير يهز رأسه ويتحرك نحـــو الفيلسوف .. امسك الفيلسوف باللوح واتجه نحـو الفأر فقال الفأر :

ـ من جديد اقول لك دع عنك هذا .. واسمح لي ان اسألك لماذا تريد ان تقتلني ..

رد الفيلسوف بحنق ظاهر :

ـ ومن انت حتى تسألني هذا السؤال ؟ انا اريد ان اقتلك لانك تستحق ذلك .

ـ دع عنك هذا يا عزيزي .. وليس المهم من انا ، فليس المهم المسميات فأنا رغم علمي بانني سأظل فأرا الا انني وبكل تواضع اود ان استفسر منك عن سبب محاولتك لقتلي ..

ـ يبدو انك انت ذلك الفأر الذي سطا علـــى الكتاب قبل ايام واتى على اكثره ..

ـ نعم انا هو !

ـ وبعد هذا تسألني لماذا اريد ان اقتلك ؟

ـ هل سألت نفسك يا حضرة الفيلسوف لماذا اقدمت انا على هذا الفعل ؟ انت فيلسوف ، وانا الان مثلك ، فما تعلمته انت ، عرفته انا بعد ان هضمت مواد كتابك .. والفلسفة لها اعتناء بالاسباب والنتائج .. اذن لو طبقت انت ما تنادي به لعذرتني في سطوي ـ كما تقول ـ على الكتاب ..

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

ـ ما اريد قوله هو انك تعلم اننا معشر الفئران لا نجد ما نأكله الا اذا كانت هناك بقايا طعام ملقاة خارج البيت .. او بالاستيلاء على بعض الموجودات في البيوت .. اننا لا بد ان نعيش مثلكم ، وما دام الامـر كذلـك فمن حقنا ان نؤمن لقمة العيش بالطريقة التـي نراها ما دمتم تجاهدون من اجل حرماننا اياها ..

ـ ولكن لاتنسى ايها الفأر المتفلسف أنكم تحدثون اضرارا كبيرة للبشر .. فانتم تنقلون مرض الطاعون ، وزوج واحد من الفئران يأكل هو ونسله خلال سنة ما يزيد على الطن من الخبز .. هذا فوق ما تحدثونه من اضرار للكتب والملابس والاثاث . من اجل كل هذا نحاربكم ..

ـ وانت يا عزيزي يجب الا تنسى انكم تستعملوننا في ابحاثكم .. فهل تنسى ـ سكنر ـ ومتاهاته . وهل تنسى ابحاث علم النفس والطب على الفئران .. انكم رغم ادعائكم باننا مصدر شر لبني البشر الا انكم في نفس الوقت تتخذون من سلوكنا منارا في ابحاثكم العلمية .

هنا وقف الفيلسوف ونظر الى نفسه والى محاوره واستغرب كيف استغرق في هذا الحوار رغم ان محدثه ليس اكثر من فأر .. وضحك في داخله من نفسه كيف يقف هذا الموقف من فأر صغير .. ويجد ان هذا الفأر يحاوره بهذا الاسلوب .. فقال في نفسه : لماذا ازعج نفسي بهذا الحوار ، لاقتله واسترح منه .. ولكن اذا قتلته فسيكون هذا موقف عجز مني ، اذ كيف اهرب من مناقشة فأر .. اذن فلا واصل معه الحوار .. قال محاولا اخفاء تضايقه من الحوار :

ـ حسنا ايها الفأر .. تعترض على استعمالنا لكم في التجارب العلمية .. ولكن لا بد ان تعلم ان هذا للضرورة العلمية ، ونحن نستعمل الفئران وغيرها من الحيوانات لهذه الضرورة فقط ، ولا يعني هذا تراجعا عن موقفنا منها .

هنا صرخ الفأر بحنق ظاهر :

ـ عجب امركم .. تهتدون بسلوك هذه الحيوانات .. ورغم هذا تعادونها اليس هذا تناقض .. أليس هذا استغلال للضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة دون اي مقابل ؟ قل لي ماذا تقدمون لهذه الفئران او الحيوانات بعد انتهاء التجارب ؟ اليس اكثر هذه الحيوانات يموت تحت التجارب فداء لكم .. وفوق هذا تظلون على موقفكم ..

رد الفيلسوف وصبره يكاد ينفذ :

ـ الغريب انك ايها الفأر تتحدث وكأنك صاحب حق .. انا لا زلت عند رأيي بأنكم مصدر ازعاج لبني البشر .. ورغم هذا فنحن لا نطمس الحيوانات كل حقوقها ، بل اننا رفقا بالحيوانات اقمنا .. جمعيات للرفق بالحيوان ..

قال الفأر وهو يخفي ضحكة :

ـ لا ادري لماذا تضحكون على انفسكم ايها الناس عندما تقولون بأنكم اقمتم جمعيات للرفق بالحيوان . ماذا فعلتم للحيوان ؟! انكم تتخذون من هذه الحيوانات وسائل للتسلية وللكسب المادي في السيرك وفي حدائق الحيوان .. ولولا ذلك لما اهتممتم بهذه الحيوانات .. وعندما لا يعود للحيوان فائدة فانكم اما ان تقتلوه او تسحقوه . وبذلك تثبتون انكم ماديون ونفعيون في سلوككم . ان هذه الجمعيات ليست بفائدة للحيوان ، لان الحيوان يعتاد الحرية واما عندكم فان حركاته تصبح محسوبة عليه ، ومن المفروض عليها ان تفعل ما تأمرونها به ..

هنا ادرك الفيلسوف ان لا فائدة من وراء اطالة النقاش ، فقال :

ـ يبدو انني قد اطلت الحديث معك ، فانت رغم تفلسفك ستبقى فأرا ، ولا قيمة لكل ما تقوله . ومن المؤسف ان اتناقش معك ، ولهذا فالافضل ان انهي معك النقاش .

وامسك الفيلسوف باللوح الخشبي من جديد وهم بان يضرب الفأر الا ان الفأر فر من وجه الفيلسوف وظل الفيلسوف يجري خلف الفأر .. وكان منظرا مضحكا اذ ان الفأر اضطر الفيلسوف للجري خلفه والدوران في الحجرة بشكل مستمر .. وبعد ن انهك الفيلسوف وقف بينما اختبأ الفأر خلف احد ارجل الطاولة الخشبية المتربعة في احد اركان الحجرة ..

وعندما لا حظ الفأر وقوف الفيلسوف قال :

ـ لا بد ان نلتقي ثانية يا حضرة الفيلسوف .. ونواصل النقاش .. ولم لا نواصله الان ؟!

وهم الفأر بمتابعة الحديث ، ولكنه سمع صوتا غريبا في البيت واذا بقط اسود تقدح عيناه شررا قد أقبل ، فقال الفأر وهو يولي هاربا :

ـ وداعا ايها الفيلسوف فان القط لا تجدي معه المناقشة !

ليبيا ـ احمد عوض النشاش

احزان رجل منسي

بلقاسم البرهومي

أقبل المساء .. واسدل معه الليل ظلامه الدامس الحالك على شوارع القرية المنجمية القابعة بين كثبان الفسفاط المترامية الاطراف والجبال العالية الشامخة. كان المطر ينزل بغزارة ، فتتساقط حبات الماء الزلال على بطحاء الدشرة في تـؤدة .. كانت السماء تلبس السحب والغيوم الحالكة .. وبين اللحظة والاخرى تهجم سيول الانواء على الابنية المتواضعة والمنـازل المتداعية .. وكنت اسمع حشرجة طوب الجـدران المتآكلة وهو يتهدم .. فيهزني المجارف عنيف .. واحسن كأن قلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي شفقة على تلك العائلات التي يرفع كافة افرادها اياديهم للـه تعالى طالبين الرحمة ، وهم خائفون مذعورون مـن تكاثر العواصف الشتوية والرياح الباردة .

ــ ياربي ! اللطف ! . الرحمة ! ــ لا عنا لا باش .. لا علاش ــ .. اه ياربي !. اللطف الرحمة ! ــ

وكنت انا في ركـن من الغرفة التي اقطنها مع اخوتي الخمسة اطالع .. احاول ان انسى تفاصيل احزان عمري ... أغوص في الكتب والمجلات المتناثرة امامي بعض السويعات .. هذه قرية ــ ام العرائس ــ بكل همومها تغزو مخيلتي .. احزان الناس فيهـا تتمطط عبر سطور ذكرياتي المظلمة .. وفجأة تصيبني نوبة بكاء حادة .. بينما تنغرس علامات الدهشـة والاستغراب على شفتي امي وتسألني في ذهـول مصطنع :

ــ ما لك يا ولدي .. !

واشعر ان نار الثورة يتأجج لهيبها في داخلي .. فاصرخ في وجـه والدتي العجوز :

ــ امي .. امي . اني العن يوم ولادتي .. كرهت الشوارع القذرة المتجهمة . سئمت الناس ، والاشياء في هذه المدينة الحزينة .. بل حتى نفسي صرت امقتها .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ . لا اعلم . لا اعلم . ها انني الان في عز شبابي ابغض الشباب !! هنا في قريتي لا توجـد نوادي تسلية ، مقاهي ، دور شـبـاب ، مراقص ، مسابح . لاشيء .. لاشيء .. لاشيء .. غير الفسفاط والغبار ..

ونظرت الى أمي فوجدتها تبتسم بسخرية وتقول لي :

ــ لا يهم يا ابني .. لا يهم ..

وانتفضت فجأة ، وقمت فجمعت اوراقي المتناثرة ورميت بها في جيبي ، وخرجت لا الوي على شيء .. وصرخات اخوتي ترتفع ورائي ..

انا هارب .. هذا الطريق يمتد طويلا امامي .. الى اين انا ذاهب في هذا الظلام الموحش والمطـر المتواصل ؟. ذلك ما كنت ــ اجهله ــ كنت أجر خطاي

في تثاقل فيجرح قدمي الحصى المرشوش على قارعة الطريق .. كانت قطرات المطر تنهال على وجهي .. وتقدمت بعض الخطوات .. هذا – العربي – راقد ملقى على – جرد زواره – يحملها على ظهره صيفا شتاء .. رمى بنفسه على جزء منها واتخذ من جزئها الاخر غطاء يحميه من لسعات البرد والمطر .. رمقني بنظرات بائسة لها الف معنى .. مد لي يديه المكدودتين ..

– ربيع خبزه .. الله يفد احوالك ..

اسرعت الى اقرب دكان في الحي .. اشتريت الخبز والسردين .. ورجعت .. اعطيتهما اياه .. وجلست قربه . كان يأكل بنهم شديد لا يوصف بينما رحت انا افكر .. كنت مطرق الرأس .. تنتابني الافكار والهواجس .. اندفعت القي عليه سؤالا طالما خامرني كلما جلست الى – العربي – هذا الرجل البائس ..

– ما رأيك في الحياة ؟

اغمض العربي عينيه لحظة ثم انطلق يحكي وكأنه ينتظر هذا السؤال من زمن بعيد ..

– اه يا بني .. ماذا اقول عن هذه الحياة ؟ لقد امتص الزمن الظالم رحيق عمري .. ها ان الفقر والغربة ينهشان جسدي وانا بين اهلي .. نعم بين اهلي اتلوى في احزاني .. جائعا .. عاريا .. ولا من رحيم اسمع ياولدي . لقد كنت اشتغل بالمنجم مثل غيري من العملة مطمئن البال .. مرتاح الضمير .. ثم ما لبثت ان وجدت نفسي اخالط اولاد الحرام فشربت الخمرة .. وصرت ذا سلوك مشين .. وطردت من عملي بدعوى اني مجنون .. وتنكر لي كل الاهل والاقارب ... وعندها فقط ادركت ان الصداقة منفعة متبادلة تدوم بدوامها ، فحملت ادباشي ، وسافرت . لا تسألني الى اين ؟؟ فقد كنت امشي ولا اعرف اين سأقف .. وبعد ان زالت عني اتعاب السير في الصحراء دخلت الارض الليبية .. لم اجد في الحقيقة ما كان يراودني من احلام واماني .. واثقلت على الغربة والهجرة .. ووجدت الجوع يلتهمني قرصتني عقاربه الموحشة فشددت بيدي على بطني ، وصبرت .. طلبت الخبز .. تسولت .. واخيرا . اظلمت الدنيا امام عيني .. وانسدت في وجهي ابواب الرزق .. فمددت يدي للسرقة .. سرقت يا ولدي !! هل تتصور ما هو ابشع من السرقة وقبضوا علي .. وصرت سجينا يرسف في الاغلال .. كان الدم الاحمر القاني ينبجس من اجزاء جسدي مع كل ضربة من حارس السجن .. وعشت خمس سنوات كاملة وانا في ظلام السجن .. وجاء يوم !! خرجت فيه من السجن .. فرحت ابحث عن الشغل .. لم اجده ، وصرت بطالا .. ما العن البطالة في بلاد الغربة يا بني !! وذات مساء . رموا بكل المتسكعين والغرباء في شاحنة وكنت معهم .. شعرت بالخيبة لان امالي التي سطع نورها ذابت كالسراب الخادع .. ورجعت الى قريتي .. طلبت الشغل فلم اجد غير البطالة .. امتلأت ذاكرتي بالوعود الكاذبة .. والان .. هاانني كما تشاهد .. غريبا لا ملجأ يضمني . ولا رفاق ولا اصحاب ولا خلان يعطفون علي .. الفقر مسمار حاد يمزق شظايا جسمي .. ماذا اقول لك اكثر من هذا عن الحياة ؟ .. انها خائنة ... تقتل نور الحياة في الوجوه .. تذكرني يوما يا ولدي .. لا تقل – العربي – مجنون .. انا مجنون لان كلام الناس ينبح كالكلاب الضارية امامي وورائي .. لم اطق صبرا ياولدي .. تمردت على الحياة ، وعلى تقاليد الناس . ما رأيك يا بني في ثورة رجل منسي .. عفوا !! ما كان لي ان اسأل مثل هذا السؤال .. طبعا انك لتعرف ان ثورة انسان ضعيف ، حزين ، فقير ، مجنون سوف ينا لها الفشل الذريع ..

ابتسمت في مرارة .. خرجت الكلمات عفوية من فمي .. قلت له :

– اني مثلك يا – العربي – .. احزاني تشبه الى حد بعيد متاعبك .. سنبقى اصدقاء ، فقراء غرباء .. في مدينة منجمية .. يغطي الفسفاط وجوه عمالها .. جرداء اشجارها .. قفراء شوارعها ... عطشى اهاليها .

ودون ان اكمل حديثي مد لي صديقي الجديد يده .. وتصافحنا على امل اللقاء غدا في مثل هذا الموعد .. ورجعت الى منزلي الحقير وفي الطريق كنت افكر .. كيف سأبني صداقتي مع رجل منسي ..

بلقاسم البرهومي

تونس – ام العرائس : ٤ مارس ١٩٧٤

عابر الجدران

قصة للكاتب الفرنسي مارسيل ايمي

ترجمة: محمد سعيد واحمد الكيلاني

في حي مونمارتر وفي الطابق الثالث رقم ـ ٧٥ ـ مكرر من شارع اورشان، كان يوجد رجل رائع اسمه دوتايول وكان دون ان يتضايق من ذلك. يضع نظارة ذات سلسال ـ بينوكل ـ وله عثنون اسود، كما كان موظفا من الدرجة الثالثة في وزارة السجلات.

يمتطي الحافلة الى مكتبه شتاء، ويقطع المسافة على قدميه في الايام ذات الجو اللطيف، ويضع على رأسه قبعة سوداء متطاولة.

كان دوتايول قد شارف على الثالثة والخمسين من العمر. فذات مساء، وعلى اثر انقطاع قصير في التيار الكهربائي، مما حمله على تلمس طريقه في الظلام لحظات. وعاد التيار فجأة، ليجد نفسه على مائدة الدرج الخارجي للطابق الثالث. وبما ان باب شقته كان مغلقا من الداخل فقد جعله هذا الحدث يمعن في التفكير، على الرغم من تحذيرات عقله له. وقرر الدخول الى بيته كما خرج منه عبر الجدار. هذه المقدرة الغريبة التي بدت، وكأنها لا تتجاوب مع اي من طموحاته، جعلته يتضايق قليلا. وفي اليوم التالي وكان يوم السبت، اغتنم العطلة وذهب لمقابلة طبيب الحي، كي يعرض عليه حالته.

فاقتنع الاخير بصحة اقواله، واكتشف ـ بنتيجة الفحص ـ سبب مرضه، وعزاه الى تصلب لولبي في الاختناق الدرقي، وعزاه مرة ثانية الى ارهاق شديد والى حبتي دواء كان قد ابتلعهما منذ سنة، والى امتصاص مسحوق ـ بيريت الثلاثي التكافؤ ـ المخلوط الارز وبهرمون السنتور ١.

وبعد ان ابتلع حبتين من الدواء الموصوف، القى به في احد الادراج، ولم التعب الشديد، فان نشاطه كموظف كان مقننا، لا يمكن ان يوصف بالافراط كما كانت ساعات فراغه معدة لقراءة الصحيفة والاعتناء بطوابعه. وما كان عمله هذا، ليجبره على اي تبديد طائش للطاقة.

وفي نهاية العام، انقطع عن ممارسة قدرته على النفوذ عبر الجدران تماما، ولم يجربها حتى نهاية السنة، وان كان قد استعملها سهوا في بعض الاحيان. لانه غير تواق الى المغامرة، وصعب الانقياد وراء الخيال. ولم تراوده ابدا فكرة الدخول الى شقته الا بواسطة الباب وبعد فتحه حسب الاصول وسماعه صوت القفل.

ولو لم يقع له حادث طارىء غير مجرى حياته، لبقي يعيش بسلام مع تلك العادات التي اعتادها دون ان تساوره فكرة وضع قدراته على المحك.

فالسيد مورون معاون رئيس مكتبه نقل الى وظيفة اخرى، وحل مكانه احدهم ويدعى السيد لوكوبيه الذي كان موجز الحديث، وعارضاه على صورة فرشاة ٠ ونظر معاون المدير منذ اليوم الاول بعين السوء الى دوتايول الذي كان لـه عثنون اسود، ويضع نظارة ذات سلسال فبدأ بمعاملته كشيء قديم مزعج قذر ٠ والاسوأ من هذا ان معاون المدير كان يدعي ادخال اصلاحات على دائرته، كان لها الاثر البالغ وكأنها وجـدت خصيصا لتنغيص سكينة موظفـه دوتايول ٠

فمنذ عشرين عاما، ودوتايول يبـدأ مكاتباته بالصيغة التالية ـ اشارة الى مراسلتكم الموقرة، المؤرخة بتاريخه، وتذكيرا بمكاتباتنا السابقة، اتشـرف بأن اعلمكم ٠٠٠ ـ هذه الصيغة كان السيد لوكوبيه يفكر بان يحل محلـها صيغة اكثر حداثة، وعلى الطريقـة الاميركية ـ جوابا على رسالتكم المؤرخة بتاريخه اعلمكم ٠٠٠٠ ـ ٠

غير ان دوتايول، لم يستطع التأقلم مع طرق المكاتبة الجديدة ٠ وكان يعود عنها قسرا الى الطريقة التقليدية، بعناد الى سبب له مزيدا من بغضاء السيد لوكوبيه، فاصبح جو وزارة السجلات ثقيلا عليه ٠

كان يأتي الى عمله متخوفا في الصباح ويعاوده التفكير ربع ساعة وهو في سريره قبل ان يداعب الكرى جفنيه ٠ وعمد السيد لوكوبيه ـ وقد توغر صـدره بسبب هذه الرغبة الرجعية التي كانت تعرض للخطر نجاح اصلاحاته ـ اقول عمد الى تنحية دوتايول ووضعه في غرفة صغيرة نصف مظلمة، كانت ملحقـة بمكتبه تشبه الصومعة، وكان بابهـا الصغير المنخفض يطل على الممر، وقد حمل لافته كتب عليها بالاحرف الكبيرة ـ غرفة المهملات ـ ٠ وقبل دوتايول هذه الاهانة التي لا سابقة لها بقلب مفعـم بالاسى ٠ ولكنه عندما كان يوجـد في منزله، واثناء قراءة عمود الحـوادث في صحيفته التي يبتاعها، كان يتخيل كل الحوادث الدامية قد حدثت للسيد لوكوبيه بالذات، وانه امسـى ضحيتها ٠

داهم السيد لوكوبيه ذات يوم صومعة دوتايول، وهو يجعجع ويلوح برسالـة قائلا ـ اعد كتابة ذي الورقة القذرة، اعد لي كتابة هذه الورقة، التي لااعرف ماذا تسمى، لانها تدنس سمعة دائرتي ـ

لقد اراد دوتايول ان يحتج ٠ الا ان لوكوبيه كان قد نعته بالحشرة الروتينية بصوت يهدر كالرعد ٠ وقبل ان يغادر لوكوبيه الغرفة، اعتصر الرسالة التي كان يحملها بيده، والقاها في وجـه دوتايول ٠

صحيح ان هذا كان متواضعا الا انه كان آليا ٠ وعندما غـدا وحيـدا في صومعته، استعظم الامر، وشعر بنفسه انه واقع تحت سيطرة الايحاء، فغادر مقعده، ودخل في الجدار الفاصل بـين مكتبه ومكتب لوكوبيه معاون المدير وقد ولج بحرص شديد، بحيث لا يبرز منه غير رأسه من الجانب الاخر من الجدار ٠

كان لوكوبيه جالسا الى طاولة العمل، وهو لايزال ينتفض من الغضب، وفـي يده ريشة الكتابة، ينقح مواضـع الفواصل في معاملة انجزها احد موظفيه حين سمع احدهم يسعل في مكتبـه ٠ واكتشف ـ بكثير من الذهول والخوف اللذين يصعب تصورهما ـ رأس دوتايول ملتصقا بالجدار، وكأن هذا الـراس تذكار من اوابد الصيد ٠ الا انه كـان حيا ٠٠ ويرسل عبر نظارته ذات السلسلة نظرة كراهية ٠ وبدأ الرأس بالكـلام حالا :

ـ ياسيدي انت صعلوك واحمـق وصبي افاق ٠

لم يستطع السيد لوكوبيه، الفاغر الفم دهشة، ان يبعد عينيه عن هـذا المنظر ٠ لكنه استطاع اخيرا ان ينتزع نفسه من كرسيه وان يقفز الى الممـر ويركض حتى الصومعة، ليجد دوتايول ممسكا ريشته بيده وهو جالس في مكانه المعتاد متخذا وضعا هادئا يدل علـى العمل ٠

نظر اليه لوكوبيه فترة طويلة بعد ان غمغم بضع كلمات ثم عاد الى مكتبه ٠ ولم يكد يجلس حتـى عـاد الرأس الى البروز من الحائط يقول :

ـ ياسيدي انت صعلوك واحمـق وصبي افاق ٠

ظهر الرأس من الجدار طوال هـذا اليوم وفي الايام التالية، اكثر مـن عشرين مرة وبنفس الايقـاع ٠ لان دوتايول كان قد وجد بعض السهولة في هذه اللعبة ٠

ولم يكتف بشتم رئيسه فحسب، بل بدأ يوجه تهديدات غامضة ٠ كان يصرخ قائلا بصوت كصوت الآتين من القبور، متبوعا بضحكات شيطانية تقول :

ـ الو غارو ٠٠٠ هالو ٠٠ هالو

يا شعر الديب ٠٠٠ بدك قضيب

انت مخيف ٠٠٠ مانك شريف

انت مشؤوم ٠٠٠ اكثر من البوم

وما ان يسمع معاون المدير المسكين هذا الصوت، حتى يمسي شاحبـا، ويشعر بالاختناق، وينتصب شعر رأسه ٠ ويبدأ عرق شبيه بعرق الموت يتصبب من ظهره ٠

نقص وزنه في اليوم الاول بمقدار ليبرة ، واضافة الى هذا فقد صار في الاسبوع التالي يأكل الحساء بالشوكة ، ويحي تماثيل حـ ـ حرس السلام ـ تحية عسكرية •

وجاءت عربة الاسعاف في بداية الاسبوع التالي لتقله الى منزله •• ومن ثم الى المصح • اما وقد تخلص دوتايول من جو غريمه ، فانه استطاع العودة الى عباراته العزيزة ـ اشارة الى رسالتكم الموقرة •• المؤرخة •••• ـ وعلى الرغم من ذلك ، لم يشعر أنه قد شفي غله تماما • اذ ان شيئا ما بداخله كان يحرض رغبة جديد مسيطرة ، للمرور عبر الجدران •

وبالطبع فد كان يستطيع القيام بذلك بسهولة • فغدا يدخل الى منزله عبر الجدران ، وما كان لينسى ذلك ابدا لكن الرجل الذي يملك مواهب لامعة ، لم يكن يقدر ان يقنع ـ ولوقت طويل ـ بممارستها في موضوع تافه كخلافه مع معاون المدير لوكوبيه • فالمرور عبر الجدران لا يمكن ان يشكل بحد ذاته هدفا • بل هو نقطة انطلاق لمغامرة ، يترتب عليها نتائج ، وتطور ، له مغانمه المادية عامة • وقد فهم دوتايول ذلك جيدا وشعر برغبة ملحة في قرارة نفسه في استكشاف المجهول ، واكمال ما بدأه وتجاوزه ايضا •

كما احس بشوق بشده الى ما خلف الجدران • ولكن الهدف كان لسوء الحظ ينقصه فيبحث عنه من خلال قراءته للصحيفة ولاعمدة السياسة والرياضة التي كانت تبدو له من النشاطات التي تبعث على الاحترام لكنها لا تشبع اي طموح من طموحات امثاله ممن يعبرون الجدران •

واستقر رأيه اخيرا على اعمدة الحوادث المختلفة ، التي وجد فيها العديد من صنوف الايحاء • وكان من نتيجة ذلك اول عملية سطو قام بها دوتايول • ومسرحها مؤسسة ودائع مالية كبيرة ، تقع على الضفة اليمنى لنهر السين • فقد اجتاز اثني عشر جدارا وحاجزا ، واستطاع الدخول الى خزائن حديدية متنوعة ، وملأ جيوبه ، بالاوراق المالية • وقبل ان يغادر المؤسسة ، وقع بخط جميل ، وبالطبشور الاحمر ـ غارو غارو ـ •

وبرز هذا التوقيع في اليوم التالي ، على متون الصحف كلها • ولم يمض اسبوع حتى شهد اسم غارو غارو انتشارا منقطع النظير • وكان تعاطف الجمهور ينطلق بدون تحفظ ، مع هذا اللص العبقري ، الذي قهر الشرطة بطريقة تثير الاعجاب •

وكانت غاراته الجديدة التي يقوم بها كل ليلة ، ويوقع فيها باسمه ، تقترن بأذى بليغ يلحقه بمصرف او بمحل مجوهرات او منزل احد الاغنياء • ولم تكن هناك امرأة لديها القليل من الخيال في باريس او في الارياف لم تتملكها رغبة شديدة في ان تهب جسمها وروحها الى غارو غارو الرهيب •

وبعد سرقة ـ ماسة برديغالا ـ الشهيرة والسطو على الخزانة المركزية ، وكلاهما وقع في الاسبوع ذاته وصل حماس الناس الى حد الهوس ، واضطر وزير الداخلية الى الاستقالة ، جارا باذياله وزير السجلات • وغدا دوتايول اثناء ذلك ، احد اغنى اثرياء باريس وظل مواظبا على مكتبه مع هذا كله حتى قيل بانه مرشح لوسام الاكاديمي • وكان جل سروره كل صباح في وزارة السجلات ان يستمع الى تعليقات زملائه حول مآثر هذا الغارو غارو ـ في الليلة السابقة ، اولئك الذين كانوا ينعتونه بالرجل الرهيب ••• والانسان الخارق •

كان دوتايول وهو يسمع هذا الاطراء يحمر من الارتباك ، وتشع نظراته بالمحبة والعرفان خلف نظارته ذات السلسلة ، لاوصاف اولائك الاصدقاء • ووصل به هذا التعاطف يوما الى درجة ايقن معها انه لن يستطيع الاحتفاظ بسره فترة اطول • وتطلع الى رفاقه يوما وقد تحلقوا حول جريدة تشير الى عملية السطو على مصرف فرنسا ، وقال بصوت متواضع خجول ـ •

ـ اتعلمون •• غارو غارو هو انا •

وانطلقت الضحكات متفجرة لا تنتهي في وجه تصريح دوتايول الذي وسم استهزاء بلقب ـ غارو غارو ـ وكان موضوع نكات لا تنتهي من قبل زملائه في المساء لدى مغادرة الوزارة • وشرعت الحياة تبدو له اقل بهجة من قبل • وبعد بضعة ايام اسقط ـ غارو غارو ـ نفسه عامدا ، بين يدي احدى الدوريات الليلية في محل للصاغة كائن في شارع لابيه ـ شارع السلام ـ وذلك بعد ان سجل توقيعه على طاولة الالة الحاسبة حيث كان الزبائن يدفعون نقودهم ، وبعد ان كان يغني اغنيات السكارى ••• وهو يحطم كافة الواجهات مستعينا على تحطيمه بانية من الذهب الخالص •

لقد كان من السهل عليه ان يغوص في احد الجدران ، وان يفلت من رجال الامن • غير ان كل شيء كان يحملنا على الاعتقاد لا ، بانه قد اراد ان يلقي القبض عليه • ويحتمل انه ود ذلك لهدف وحيد هو اسكات زملائه الذين كان عدم تصديقهم لحديثه قد أهانه كثيرا •

وفوجىء هؤلاء بالحقيقة ، حينما نشرت الصحف في اليوم التالي ، وفي الصفحة الاولى صورة دوتايول واسفوا كل الاسف لانهم تجاهلوا صديقهم العبقري • ولتكريمه اطلقوا عثانينهم تشبها به •

اما البعض الاخر وقد استجره الندم والاعجاب معا ، فحاول ان يمارس نفس ادوار دوتايول ،ولكن بسرقة دراهم وساعات اصدقائهم ومعارفهم . ويبدو انه اسلم نفسه للشرطة ، ليثير دهشة زملائه ، على الرغم من ان هذا العمل يدل على خفة لا تليق برجل فريد مثله.

والحقيقة ان رغبته في اثارة الدهشة لم تكن العامل الرئيسي في قرارة . وبما ان دوتايول رغب عن الحرية ، فقد ترك نفسه هدفا لرغبة معاكسة . بينما كان في الحقيقة ينساق ببساطة الى قدره وما من مستقبل مشرق لرجل يعبر امام دوتايول في زاوية شارع قليلا .

وحينما دخل دوتايول الى زنزانات - دولا سانتيه - سجن الصحة - وهو اكبر سجون باريس ، تملكه شعور بان القدر يؤثره على سواه . لان سماكة الجدران كانت مهزلة حقيقية بالنسبة اليه . واكتشف الحرس - بذهول شديد - في صبيحة اليوم التالي ، ان سجينهم قد علق ساعة مدير السجن الذهبية ، على مسمار على حائط زنزانته . وعجزوا على ان يستخلصوا منه كيف حصل عليها ، كما اعيدت الساعة الى مالكها .

ووجدوا في اليوم التالي قرب رأس - غارو غارو - حيث ينام، الجزءالاول من رواية الفرسان الثلاثة وقد جاء به من مكتبة المدير ، فجن جنون موظفي - دولا سانتيه - وبلغ بهم الكللاقصاه. اما الحرس فقد اشتكوا ، من انهم يتلقون الركلات في اقفيتهم ، وكان ومالوا الى الاعتقاد با نالجدران ليس لها اذان كما يقال بل لها اقدام .

ظل - غارو غارو - سجينا اسبوعا كاملا . وحين دخل مدير السجن الى مكتبه ذات يوم ، وجد على طاولته الرسالة التالية - السيد المدير ، اشارة الى محادثاتنا المؤرخة بتاريخ١٧ الجاري وتذكيرا بتعليماتكم العامة المؤرخة ب١٥ مايس من السنة الماضية ، اتشرف بان اعلمكم انني قد انهيت قراءة الجزء الثاني من الفرسان الثلاثة ، واعتزم الهرب هذه الليلة بين الساعة ٢٥ر١١ والساعة ٣٥ر١١ وارجوكم ياسيدي المدير ان تقبلوا خالص احترامي .

وعلى الرغم من الحراسة المشددة . التي اخضع لها غارو غارو تلك الليلة ، فقد استطاع دوتايول الهرب في الساعة الحادية عشرة والنصف . وعند وصول الخبر ا لىالجماهير في صباح اليوم التالي عمتها حماسة شديدة بالغة . ونفذ دوتايول خلال ذلك - عملية سطو توجت شعبيته ، بدا فيها غير مهتم بالاختفاء ودون اية احتياطات . وبعد ثلاثة ايام من هربه ، تم توقيفه قبيل الظهر في شارع - كولانكور - وفي مقهى-الحلم- وذلك عندما كان يتناول النبيذ الابيض الممزوج بالليمون ، مع مجموعة من الاصدقاء . واقتيد مرة اخرى الى سجن الصحة ، واغلق عليه الباب بالمزلاج . بحركات ثلاث والقي في زنزانة معتمة . الا ان غارو غارو - هرب منها في ذات المساء ، ومضى للنوم في شقة مدير السجن وفي غرفة الضيوف نفسها . وفي ضحى اليوم التالي ، وفي الساعة التاسعة ، قرع الجرس لتأتيه الخادمة بطعامه الذي تناوله في السرير . حيث القى الحرس الغاضبون القبض عليه دون اية مقاومة .

وقد امر المدير - وهو يستشيط غضبا - بوضع مركز حراسه على باب زنزانته ، وان يطعم الخبز الجاف . وقبيل الظهر كان السجين يتناول طعامه في مطعم مجاور للسجن . وبعد ان احتسى قهوته هتف الى المدير قائلا :

- الو ، السيد المدير ، انا في مأزق ، لاني نسيت ان اخذ من محفظة نقودك ثمن الغداء عند خروجي وانا الانرهين فاتورة المطعم . فارجو ان تتكرموترسل احدهم لدفع الحساب .

ركض المدير بنفسه يهدد ويشتم ، وبما ان دوتايول شعر بان كرامته امتهنت ، فقد هرب ، في الليلة التالية والى الابد . الا انه كان شديد الحرص هذه المرة . فحلق عثنونه الاسود واستبدل نظارته ذات السلسلة بنظارة لامعة ، وستر رأسه بقبعة رياضية ، وارتدى سترة فضفاضة مكعبة وبنطال غولف ، وكان جميع هذا كافياللتمويهه. واستقر في شقة صغيرة في شارع - جونو - نقل اليها جزءا من امتعته واثاثه قبل توقيفه الاول .

كانت ضجة شهرتهقدبدأتتتعبه،منذ اقامته الاولى في سجن - دولا سانتيه - وغدا يرتاح كثيرا للمرور عبر الجدران . مع ان اكثرها ثخنا ومناعة ، تبدو له حواجز بسيطة . وبدأ يفكر بالولوج في قلب بعض الاهرامات المصمته . حتى صار مشروع السفر الى مصر يلح على ذهنه . وكان يعيش اثناء ذلك حياة وادعة ، موزعة بين مجموعة طوابعه والسينما والنزهات في مونمارتر .

وجعل تنكره تاما الى درجة انه اذا مر باقرب المقربين منهلم يعرفه ،غير الرسام جان بول الذي لا تفوته شاردة ، ولا يخدعه اي تنكر طارىء على ملامح اي ساكن قديم في الحي . فقد استطاع ان يكتشف شخصيته الحقيقية .

ووجد نفسه ذات صباح ، وجها لوجه امام دوتايول في زاوية شارع – الابروفوار – ولم يتمالك نفسه عن ان يقول بلهجته العامية – •

– ارى انك تنكرت بشخصية رجل انيق لتخدع مفتشي الامن •

فتمتم دوتايول :

– اعرفتني ••

وتملكه اضطراب شديد وقرر الاسراع في الرحيل الى مصر • ولكنه بعد ظهر نفس اليوم ، وقع في حب فتاة جميلة شقراء ، كان قد قابلها مرتين خلال ربع ساعة في شارع – لوبيك – • فانساه هذا بسرعة مجموعة طوابعه ومصر والاهرامات ••

اما الفتاة الشقراء فكانت تنظر اليه باهتمام شديد • ولم يكن هناك شيء يحرك مشاعر النساء في ذلك الوقت ، كبنطال الغولف والنظارات اللامعة وكان هذا يضعهن في اجواء حفلات الكوكتيل وليللي كاليفورنيا • علم دوتايول لسوء الحظ من جان بول ، ان الفتاة الجميلة متزوجة من رجل قاس غيور شكوك يعيش حياة الليل • ويترك زوجته بانتظام بين الساعة العاشرة ليلا والرابعة صباحا ، وانه قبل خروجه كان يتخذ احتياطاته • فيقفل جميع المنافذ باقفال مزدوجة ، ويراقب زوجته بدقة متناهية في النهار ، حتى انه كان يتبعها في شوارع مونمارتر الا ان تحذير جان بول ، لم يزد جذوة دوتايول الا ضراما •

وحين قابل المراة الشابة في شارع – تولوزيه – تجرأ على اتباعها الى حانوت مشتقات الالبان ولما كانت تنتظر دورها ، فقد سنحت له الفرصة ليقول – بانه يحبها ، ويعرف عنها كل شيء ، زوجها الشرير ، وبابها المغلق بالمفتاح ، ومع هذا فسيكون في غرفتها مساء •

احمرت المرأة الشقراء ، وطفق وعاء حليبها يرتجف بيدها ، وقالت له وعيناها تفيضان بالحنان وهي تتنهد بضعف – •

– واسفاه ياسيدي ، فما تقوله مستحيل •

وفي مساء هذا اليوم المشهود كان دوتايول امام منزلها حوالي الساعة العاشرة في شارع نورفان – يرقب السور الثخين ، حيث يقع خلفه منزل صغير ، لايبدو منه سوى جهاز مؤشر الرياح والمدخنة •

فتح باب وخرج منه رجل واغلقه بعناية خلفه • ثم نزل متجها الى شارع – جينو – • انتظر دوتايول حتى راه يختفي بعيدا ، لدى انحناء الطريق المنحدر • وعد حتى العشرة ثم القى بنفسه في الجدار بخطا رياضية • واستمر يعبر العوائق حتى دخل على الحسناء المعزولة في غرفتها • واستقبلته نشوى بلقائه وبقيا يتحابان حتى ساعة متأخرة •••

وشعر دوتايول في اليوم التالي بالم شديد في رأسه • فلم يمنعه هذا الشيء التافه مع ذلك من الذهاب الى موعده • وعلى كل حال فقد وجد – على غير توقع – بضع حبات متناثرة في قعر درجه فابتلع واحدة منها في الصباح واخرى بعد الظهر •

وفي المساء خفت الام رأسه قليلا •• وانسته الباقي نشوة الحب • حيث كانت الشابة في انتظاره ، بكل فراغ الصبر الذي ولدته فيها ذكريات الليلة السابقة وبقيا يحتسيان هذه الليلة ، كؤوس الهوى حتى الساعة الثالثة صباحا ، حين غادر دوتايول المنزل واجتاز حواجزه وجدرانه • فشعر باحتكاك غير معهود بكتفيه وعجزه ، ولم يعر الامر اهتماما الا انه حينما دخل في جدار السور الخارجي شعر بوضوح المقاومة تماما ، وكأنه يتحرك في مادة سائله ، اخذه بالتجمد • ومع كل جهد بذله للتخلص فقد احس بمقاومة اكثر •

وبعد ان اكتمل دخوله في سمك الجدار ، شعر بعدم قدرته على التحرك الى الامام • وتذكر الحبتين اللتين ابتلعهما في النهار • هاتان الحبتان ظنهما حبتي اسبرين – وتحتويان في الحقيقة على مسحوق البيريت الثلاثي التكافؤ • والذي وصفه له الطبيب في السنة الماضية •

فتأثير الدواء ، مضافا اليه الاجهاد المفرط ، بدأ مفعولهما بطريقة مفاجئة وبقي دوتايول كالمتجمد داخل الجدار • ومازال كذلك حتى الان ملتصقا بالحجارة • ومازال المتنزهون ليلا – حتى اليوم – في شارع نورفان ، وفي الساعات التي تهدأ فيها ضجة باريس من العالم الاخر فيعتقدون ان هذا الصوت هو صوت عويل الريح قادما من تقاطع طريق – دولا بيت – • وما هذا سوى الغارو غارو – دوتايول ، الذي يندب نهاية سيرة حياته المظفرة ، والاسف على حبه القصير جدا •

وفي بعض ايام الشتاء ، يتجول الرسام جان بول ، وقد علق قيثارة على كتفه ، متسكعا في شارع – نورفان – المقفر ، لكي يعزي باحدى اغنياته السجين المسكين ، وتنطلق النغمات من انامله لتدخل قلب الحجر كنقاط القمر •••

للكاتب
مارسيل ايمي
نقلها عن الفرنسية
محمد سعيد وأحمد الكيلاني

رسائل الاصدقاء

هذه الرسالة كان قد أرسلها المرحوم ميشيل مغربي الى الاستاذ عيسى فتوح وذلك قبل وفاته في سان بولو

عزيزي الاستاذ عيسى فتوح دمت بخير وصحة وسلامة

منذ أمد طويل كنت أريد أن أكتب اليك، ويحول دون ذلك ما يحول، الا أنني اليوم اطلعت على جريدة حمص، لعددها الذي كان قد صدر في ١٩ آذار ١٩٧٦، وهذا العدد لم يصلني حتى اليوم، وكل بريد غير جوي من الوطن لايتاح له الوصول • انما النادي الحمصي تصله جريدة حمص بالبريد الجوي، فأوصلوا هذا العدد الي، لاستفقادي مقالا لك فيه، وهكذا اطلعت على مقالك عني وعن المرحوم وجيه الخوري، وعلى قصيدته وقصيدتي • اطلعت أيضا على تعليقك على هاتين القصيدتين، هذا التعليق الذي يشرح كل شيء، فشكرا لك •

قلت انني منذ أمد طويل كنت أفكر أن أكتب اليك، ويحول ما يحول، أما اليوم فلم يعد من شيء يحول • وأول ما أقول هو اعادة قولك «اننا سنظل أوفياء للمرحوم وجيه» • نعم سنظل أوفياء، وهو الذي كان رفيقي منذفجر الصبا، قبل أن ترى أنت نور الوجود • ولكن وجيها أحبك، ولم يحبك الا لصفات أحبها فيك، وهذا لا شك فيه • فلاحبك أنا أيضا لاجل هذه الصفات •

استلمت اليوم أيضا عدد أكتوبر من مجلة (الاديب)، وفيه مقالك عن المرحوم الشاعر شكر الله الجر • لقد وصل بعد ثمانية أشهر من صدوره، لانه جاء بالبريد البحري، ولا عجب في ذلك، والامور ما نرى في لبنان المسكين • وأظن أن البريد البحري من سوريا يأتي عن طريق بيروت، لا عن طريق اللاذقية، والا لما كان نصيبه نصيب بريد بيروت •

أجل قرأت مقالك بعد أن كحلت عيني برؤية رسمك الجميل المرسوم فيه أيضا، تتدفق منه دمـــاء الشباب، فسررت وأي سرور، لانه زادني معرفة بك• أما أنا فــلا أريدك أن ترى رسمي • في مقالك هذا عن المرحوم شكر الله وقد كان رحمه الله صديقا لي أنا أيضا، وأي صديق أنيس، في مقالك هذا أقرأ هذه القطعة :

« ميشيل مغربي : يحسن من اللغات العربية، وقليلا من الفرنسية، ولعله أجود قريحة من سائر شعراء حمص في البرازيل، وأكثرهم تعدادا لمواضيعه ••• « الى أن يقول ــ رحمه الله ــ « وعند من لا يعرف أديبا يظن أنه تاجـــر ازرار فحسب ••• » •

ان المرحوم شكر الله لم يكتب عني الا كل ما يشكر عليه، الا أنني في بعض أقواله عني ما يؤخذ عليه، لا لسوء قصد، بل لسبق لسان أو عدم روية • انه يقول انني أحسن من اللغات العربية وقليلا من الفرنسيـــــة • صحيح أني لا أعرف الا قليلا من الفرنسية، لا يزيد على كتابة ما يمكنني من كتابة الرسائل لعملائي في فرنسا. وقد درستها بعد سن الاربعين لهذا المقصد نفسه، على أن قرينتي كانت تنقح تلك الرسائل، لانها تعرف الفرنسية جيدا • أما أن يعلمك أني أحسن العربية فلا أعلم ما القصد منه ؟ ألعله كان يريد أن يقول أني أحسن الانكليزية، وقد بدأت بدرس الانكليزية والعربية معا، منذ أن أدخلوني الى أول مدرسة عند الصغر، وكان ذلك فيمدينة الاسكندرية، مسقط رأسي، حيث بقيت الى سن العاشرة، ولما قدمت بي والدتي الى حمص، وأنا في تلك السن، أدرجني ذووى، ولا أقول والدي، لانني ولدت يتيما، أدرجوني في الكلية الانجيلية حيث آتممت الاستعدادية، وبعد أن أتممتها، ظللت مثابرا على المطالعة في تلك اللغة، وتمكنت منها تمكنـــا يقارب الاتقان بين المتعلمين من أهلها •انك لم تكن في حاجة لان يقول لك أني أحسن البرتغالية، لغة هذه البلاد التي أقطنها منذ أكثر من خمسين عاما، وانما سبق لسانه فقال أنـي أحسن العربية، بدلا من أن يقول أني أحسن الانكليزية •

ثم انه يقول : « وعند من لا يعرف أديبا ، يظن أنه تاجر أزرار فحسب » • هذا صحيح ، وذلك لانني تاجر ، والتجارة تقتضيني ذلك • هل يريدني أن أظهر لهم في مظهر الاديب ، أو أتكلم كلام أديب ، وأنا أقابل العملاء الذين هم نصف أميين ؟ انهم بلا شك ، اذا فعلت ذلك ، يشعرون بالنقص ويتهربون • انها خطة مني لم يكن منها بـد • في قصيدة عنوانها « نجوى العاصي » نظمتهابعد خمس سنوات من وصولي الى البرازيل ، وكنت قد قضيت تلك السنوات الخمس وأنا أتجول في أنحاء البرازيل ، أعـرض بضاعتي على المواطنين ، أصحاب الحوانيت التجارية البعيدة عن سان باولو ، ولم أنظم في أثنائها الا قليلا قليلا • في تلك القصيدة التي أصف فيها حالتي في تلك الاثناء ، ستجد هذين البيتين :

ولقد أطوف علي ستر تنكر   للالمعية مبعـد طـراح
والقوم لايدرون أني شاعر العاصي واني البلبل الصداح

أجل ستقرأ هذه القصيدة في ديواني ، وتعلـم أن بساطة المظهر وبساطة الحديث ، كانا يقتضيان ذلك • كما أن عملي كان يقتضي ذلك • أما المرحوم شكر الله فلـم ينجح تاجرا ، ذلك لانه كانت تنقصه السياسة • انه اشتغل في الادب فقط ، وأنتج انتاجا حسنا ، أما أنا فاليك ماأقول:

خضت التجارة والقريض معـا
بحرين كل زاخر طـــام
فقضيت عمرك في العباب ولـم
تطفيء غليل فؤادك الظامـي
لو لـم تخض بحر التجارة لـم
يبلغ قريضـك أي عـوام
ولكنت أثرى القوم عن ثقـة
لو كنت للشعراء لم تنضـم

ما شاء ربك كان لا تنـدم

اني أريد أيها العزيز أن أظهر لك بعض الحقائق لا أن أمتدح نفسي ، فما كنت قط من المتدحين ، ولاأعتقد الا أنني صغير بين أدباء المهجر • ولقد كان الكثيرون يكتبون لي لاوافيهم ببعض نتاجي ، فلا أجيبهم ، فكانت لذلـك قسمتي في ما كتب عن أدباء المهجر •

وقبل أن يفوت الوقت وأنسى ، ألاحظ أيضا على قول المرحوم شكر الله عني أنه يقول : « ولعله أجود قريحة من سائر شعراء حمص في البرازيل وليس ما أقصد ان كنت أجودهم قريحة في البرازيل أو غير البرازيل ، انما أريد أن أقول ان ليس جودة القريحة هي سمو الشاعرية • ان عبد المحسن الكاظمي الشاعر العراقي ، الذي كـان معاصرا لشوقي وحافظ ومطران ، هذا الشاعر كانوا يقترحون عليه القافية والوزن ، فيملي عليهم في الموضوع الذي يريدونه السبعين والثمانين بيتا دفعة واحدة • وهذا ما لم يكـن يستطيعه أحد هؤلاء الثلاثة ، ولا سيما حافظ ، الذي كان يقضي في نظم القصيدة شهرا أوشهرين ، ولكن هل كـان الكاظمي ، مع جودة قريحته ، يسمو الى مطران وحـافظ وشوقي ؟ ان البون شاسع بينه وبينهـم • فليست جودة القريحة مقياسا للشاعرية • هذا ماأخذه على المرحوم شكرالله ان عندي رسما أخذ لنا نحن الثلاثة ، أنا وشكر الله وموسى حداد ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، سأفتش عنه وأرسله لمجلة (الضاد) لتنشره تذكارا •

أنا أيها العزيز عيسى أقاسي نفس الداء الذي كـان يقاسيه المرحوم وجيه ، الذبحة الصدرية ، وسيكون مصيري كمصيره قريبا • انني أعرف ذلك ، غير أنني أطلب من الله أن أنجز طباعة ديواني قبل أن يجيئني هذا الامر المحتم • ولقد ذللت العوائق الان ، وكنت مزمعا سابقا ، أن أطبعه في أحد مطابع بيروت ، ولكن صبرت كثيرا ، ولم تنتـه الحوادث في بيروت ، فاتفقت مع احدى مطابع سان باولو وسيبدأ به في نصف شهر حزيران •

اني أحب أن أقرأ لك ، وأعتقد كل الاعتقاد أنـك ستكون من كبار الكتاب • عندنا هنا مجلة (المراحـل) ، فسأوعز الى صاحبتها مريانا دعبول أن تبدأ بارسالها اليك هدية مني • ولكن أريدك أن تكتب فيها • في أول مقابلـة سأطلب اليها ذلك ، ولكن أرجوك أن توافيني بعنوانك في دمشق •

أرجو أن تقدم عني أزكى التحيات الى يوسف عبـد الاحد ، هذا الذي كان المرحوم وجيه يحبه كما يحبك ، ويذكره كما يذكرك •

أختم كتابي هذا بشكرك لتعليقك على قصيدتي وقصيد المرحوم وجيه ، وبقبلات أخوية صادقة وبتحيات زكيـة عطرة • قرينتي تبلغك كذلك أزكى التحيات ، ولقد أخبرتني أنها كانت قد قابلتك وقابلت يوسف وتحدثت اليكمـا في منزل وجيه بدمشق •

سان باولو ـ ميشيل مغربي
١٩٧٦/٥/٢٨

الى الشاعر سليمان عواد ــ دمشق

منذ مدة طويلة لم أقرأ لك شيئا جديدا ، فهل الكرسي في وزارة الاعلام قد أعاق ابداعك أو اشراقتك كما يحلو للشاعر مصطفى النجار ان يسميها ، أم هو دوار الازمة الشعرية الذي يأخذ كل من ادركته حرفة الادب في هذه المرحلة .. أم ماذا .. ؟

سؤال شغلني فترة من الزمن ، حتى نمي الي انك عاكف على اعداد مجموعة شعرية جديدة للطبع تظهر فيها باعك الطويل في قصيدة النثر التي كنت من روادها في قطرنا ، فمن يكتب ــ شتاء ــ عام ١٩٥٧ ومن قبلها وفي عام ١٩٥٠ يكتب ــ شراع ــ :

اسرع ياشراعي فنفوس العبيد لن تجري مع تيارات الزمن
الطليعة المنورة ، لان دمها الفاسد ملطخ بالعار
ممزوج بالعبودية ....
اسرع ودع الزوارق المسحورة
بنشوة الرجعية والانحطاط تترنح جذلة طروبة
ريثما تداهمها اعاصير الزوبعة الهائلة .

وبعد عام يكتب ــ غفوة ــ حيث يقول :

وعندما اصحو .. اشعر كأن نجمة زرقاء
هربت الي جبهتي
وحين المسها بيدي ، لا أحس الا بانتفاضات حانقة
ترسلها اخاديد جبهتي .. فأضحك ساخرا
واقهقه مليا من عبق الحانه
وتمرد الظلال

ويستمر في كتابة ــ قصيدة النثر ــ طوال ثلاثين عاما جدير بالدراسة والبحث في هذا الشكل الشعري الذي تبناه مذ وعى حرفة الشعر ، وودق العاطفة في العلاقة بين الانسان والاشياء .

دمشق ــ عبد الكريم دندي

الى الشاعر حسين علي محمد ــ الزقازيق : مصر العربية

قرأت ديوانك ــ السقوط في الليل ــ وقد خالجني وهم السقوط في الظلمة الداكنة ، ولكني حين اتيت على اخر قصائد المجموعة التي نشرتها بمساعدة اتحاد الكتاب العرب بدمشق ــ نهاية الرحلة ــ شعرت بعنفوان الشباب في مختلف نشاطاتك ، وان الخوف الذي تجسد في داخلك ما هو الا قدر المعذبين بالحرف في هذه الدنيا الفانية ياصاحبي :

ومركبي .. في الوحل ياصديق
اخاف من عوائق الطريق
اخاف من غدي المجهول
الخوف في خطاي
والموت فيك يا سهول

ولقد شعرت بما تكابد من الام الغربة في حياتك الادبية وأن التشاؤم يسور رؤيتك الى الامور ، حتى العلاقات الطيبة :

اراك تسقطين
فراشة محروقة في الليل .. اراك تسقطين
والليل يستمر
أراك تسقطين والليل مستمر
والصبح لا يبين

ومهما يكن ، فان الشعر عربة الخلاص لكل نفس معذبة بقدرها في هذا العصر المضطرب ..

دمشق ــ عبد الكريم دندي

الى المؤرخ العلامة الاستاذ أمين مدني

سلام من الله عليك ورحمة منه وبركات

اما بعد :

يسرني أن أعلمكم أنني اطلعت على رسالتكم الموجهة الي على صفحات ـ الثقافة ـ الدمشقية الغراء ، والمنشورة في عدد تشرين الاول ـ أكتوبر ـ ١٩٧٨ من المجلة المذكورة ولا يسعني الا ان اشكركم بالغ الشكر على ثقتكم بي ، وارجو ان اكون اهلا لهذه الثقة . واذ تفضلتم وطلبتم مني ان ارجع واتحقق من اسم ـ الجرمق ـ يسعدني والحالة هذه ان اورد لكم بعض ما تذكره المصادر الجغرافية والتاريخية حول هذا الجبل المعروف في بلادنا السليبة .

١ ـ موسوعة فلسطين الجغرافية ـ لقسطنطين خمار وهي موسوعة جغرافية صادرة عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وصادرة في بيروت سنة ١٩٦٩ تقول في صفحتها ٨٠ تحت عنوان ـ جبل الجرمق ـ ما ننقله حرفيا دون تغيير : ـ من جبال الجليل الاعلى يقع الى الشمال الغربي من مدينة صفد وهو اعلى جبال فلسطين ، اذ يرتفع ١٢٠٨ امتار عن سطح البحر يتراوح معدل سقوط الامطار عليه بين ١٠٠ و ١١٠ سنتمترات ـ .

٢ ـ المنجد في اللغة والاعلام يقول في صفحة ٢١٢ مايلي والجرمق ـ جبل ـ : اعلى جبال فلسطين يشرف على مدينة صفد ١٢٠٨ م . اكثر قمم جبال الجليل ارتفاعا

٣ ـ اما شيخ الربوة الدمشقي المتوفي سنة ٧٢٧ هـ فيقول في كتابه ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ ـ وصفد حصن بقية جبل كنعان في ارض الجرمق ـ ص ٢١٠ طبعة اوربا .

٤ ـ في حين يقول مؤلف كتاب ـ ولاية بيروت ـ ـ التميمي والكاتب ـ في الصفحة ٣٥٦ من كتابهما : ـ ورغما عن ذلك فان قصبة صفد المكشوفة من اطرافها الثلاثة تمثل منبر الشعر والحماس بأطلالها على اراضي قضائي مرجعيون وصور من الجهة الشمالية وعلى بحيرة طبرية وغور بيسان من الجهة الجنوبية وعلى جبل زبود والجرمق من الجهة الغربية ـ .

٥ ـ اما المؤرخ الكبير الاستاذ مصطفى مراد الدباغ فيقول في المجلد الاول من موسوعته التاريخية ـ بلادنا فلسطين عن الجرمق مايلي : جبل الجرمق يقع شمال غربي صفد حيث يبلغ ارتفاعه ١٢٠٨ امتار : ٣٩٦٣ قدما . وهو اعلى قمم البلاد ومن الجرمق تتفرع عدة اودية مخصبة جهة الشمال الغربي والشمال الشرقي والشرق ، وليس من واد يمتد الى الجنوب ، قال ياقوت ـ ووادي الجرمق كثير الاترج والليمون .. قتل فيه علي بن الحسين بن محمد بن احمد بن جميع الغساني أخو أبي الحسن بعد سنة ٤٥٠ هـ ـ . دعي الجرمق نسبة الى الجرامقة القبيلة العربية التي تركت منازلها في اليمن ونزلت شمالي فلسطين وجنوبي لبنان في العصور الماضية ، وخلدت اسمها في هذا جبل الجرمق هذا ص ٤٧ ـ ٤٨ .

٦ ـ امسا في كتابنا ـ تاريخ جسكالا ـ و ـ جسكالا ـ هو الاسم القديم لبلدتي ومسقط رأسي الجش التي عنيت بكتابة تاريخها منذ اقدم العصور حتى اليوم وهي بلدة قديمة وتقع على التلال المطلة على جبل الجرمق كما تقع معظم اراضيها الزراعية على سفوحه الشمالية فقد وردت المعلومات التالية : جبل الجرمق ومن اهم المواقع المتميزة القريبة من الجش جبل الجرمق وهو يمتد اما مها كحاجز عظيم من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، اما كتلته الكبيرة فتقع قبالة الجنوب المنحرف قليلا نحو الغرب وقمته اعلى قمة في جبال الجليل بل اعلى قمة في فلسطين كلها اذ ترتفع ١٢٠٨ امتار عن سطح البحر .

وسمي الجرمق نسبة الى مدينة الجرمق الدائرة والتي كانت تقوم في اعلى نقطة منه وتسكنها قبيلة الجرامقة العربية التي تعود باصلها الى عرب اليمن على ان شيخ الربوة الدمشقي المتوفي في صفد سنة ٧٢٧ هـ وصاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ يرجع نسب الجرامقة الى العبرانيين ، في حين ينسبهم بعض المؤرخين الى الاراميين ، ومن الجرمق تتفرع عدة اودية اشهرها وادي الجرمق وقد شاهده ياقوت الحموي وقال عنه ووادي الجرمق كثير الاترج والليمون ، قتل فيه علي بن الحسين بن احمد ابن جميع الغساني ، بعد سنة ٤٥٠ هـ ، ويسميه الاهلون ايضا بجبل الزابود نسبة الى خربة الزابود الباقية اثارها الى اليوم والتي كانت مأهولة بالسكان الى زمن قريب . وجبل الجرمق مكسو بالاشجار الوعرية ، اما سفوحه فمغروسة باشجار الزيتون ، كما تزرع بالحنطة والشعير والجلبان ، واشهر تلك الاراضي النمورة السالفة الذكر ، وتشترك في ملكية سفوحه الشمالية اربعة بلدان هي الجش سعسع الصفصاف وميرون ، اما سفوحه الجنوبية فمعظمها ملك لاهالي القرى الدرزية كبيت جن وغيرها .

وقمة هذا الجبل تشرف على البحر الابيض المتوسط غربا وعلى بحيرة طبريا ومدينة صفد شرقا ، وجبال الجولان وبحيرة الحولة وسهل الغور وجبل حرمون شمالا .

وان أنس لا أنس صباح ذلك اليوم المشرق الجميل من ربيع سنة ١٩٤٤ م يوم اتفقنا نحن طلاب مدرسة الجش مع استاذنا المرحوم الشماس اتناس يوسف عقل على الصعود الى القمة ، كان استاذنا رحمه الله بدينا للغاية وذا لحية طويلة كثة اشبه بلحية كاهن اشوري وكان يرتدي ثياب الكهنوت السوداء وهي عبارة عن مسح اسود طويل ، ويعتمر قبعة صفراء كبيرة . كان وزنه يزيد على مائة وثلاثين كيلو غراما ويميل الى القصر ، حتى ان رقبته تكاد تلتصق بكتفيه وكنا نحن صغارا كالعفاريت ـ كنت انذاك في الصف الرابع الابتدائي . كنا نسبقه لخفتنا ونجلس في الاعالي لنتستريح حيث يلحق بنا وهو يلهث وقد توردت وجنتاه الممتلئتان، وكاد الدم يتفجر منهما وقد نضحه العرق ولكنه وللحقيقة والتاريخ نقول : انه كان يتمتع بارادة عجيبة وحب على الاكتشاف عظيم ، ويتميز بعناد اهل الجبال وشجاعتهم الرائعة ويحب ان ينقل هذه الصفات الى تلامذته ولهذا فقد ظل يناضل ويجاهد ، حتى استطاع ان يرتفع معنا الى قمة هذا الجبل الشاهق ، ووقف يشير لنا بأصابعه القصيرة الثخينة ، شارحا المواقع واحدا اثر واحد ومشيرا الى جمالها بدهشة محببة ، آه رحمه الله .. لقد جعلنا نشاهد منظرا من اجمل واروع مناظر الدنيا .

هذا ولا يسعني في ختام هذه اللكمة الا ان اهدي التحيات الطيبات المباركات لعالمنا الجليل الاستاذ أمين مدني سائلا اللـه تعالى ان يمن عليه بالمر المديد والصحة والعافية ليتحفنا في ايامه القادمة ببحوثه القيمة التي تسد فراغا كبيرا في الخزانة العربية ، وسلام عليه ورحمة من الله وبركات .

دمشق ـ خليل خلايلي